ملف خاص
أكتوبر 2020

مواطن

www.muwatin.net

حوار خاص مع طبيب صدام

الفنان التشكيلي
علاء بشير

أدب المهجر الحديث..

المنفى والمنأى والوطن

بين أدب المهاجر قديما
وصور الاغتراب حديثا

كيف سرقت غواية الأدب
غطاء الدين؟

وداعًا أيتها السماء .. رحلة البحث عن الله

أدب المهجر: بين رومانسية الطرح ونضالات الحريات

ملف خاص صادر عن
شبكة مواطن الإعلامية
ما بعد الخطوط الحمراء
نرصد أحداث المجتمع ونهتم
بقضايا المواطن في الخليج
والعالم العربي

المملكة المتحدة - لندن

للتواصل: Contact@muwatin.net

المدير التنفيذي رئيس التحرير

محمد الفزاري

الفهرس

1 تأشيرة
أدب المهجر .. المنفى والمنأى والوطن

3 حوار
علاء بشير والغراب الشاهد .. فنان تشكيلي كان طبيبا لصدام حسين

9 تداعيات
سلام لبيروت

13 أراء
وداعا أيتها السماء .. رحلة البحث عن الله
محمد سميح

17 أراء
أدب المهجر.. الثورة على القديم
أزورييس

21 أراء
سهيل إدريس .. كيف سرقت غواية الأدب غطاء الدين؟
زكية بن خذير

25 إنفوجرافيك
أمجد ناصر .. الحياة كسرد مقطع

26 أراء
بين أدب المهاجر قديما وصور الاغتراب حديثا
محمد هشام

35 أراء
أدب المهجر : بين رومانسية الطرح ونضالات الحريات
بوذراع حمودة

38 أراء
جبران خليل جبران.. فيلسوف المهجر وأديب عالمي

تأشيـــرة

أدب المهجر .. المنفى والمنأى والوطن

محمد الفزاري
رئيس التحرير

علاقة الأدب العربي بمسائل الهجرة والشتات والنفي والمنفى ليست جديدة وجدانيا عند الإنسان العربي وبالأخص العربي المسلم، بل تعود إلى الارتباطات الإسلامية المبكرة بالهجرة، هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ثم هجرة النبي محمد إلى المدينة. وهذا التأثير جعل من فكرة المنفى في العقل اللاواعي الجمعي أكثر رومانسية وأحيانا تصل إلى الطوباوية كذلك. الشاعر العراقي يحيى السماوي في قصيدته التالية التي يقول فيها بكل وضوح إنه آثر أن يعيش منفيا باختياره ليكتوي بالنار ذاتها التي يكتوي بها وطنه على أن يعود إليه ليقابل الموت، الموت الذي لا معنى له:

يـومي لـه لـيـلانِ... أيـن نـهـاري؟

أتـكـون شـمـسـي دونـمـا أنـوارِ؟

أبحرتُ في جسد الفصول مُهاجـرا

طاوي الحـقـول ولـيس من أنصارِ

أبْـدَلـتُ بالـظـلِّ الـهـجـيـرَ لأنـني

قـد كـنـتُ في داري غـريـبَ الـدارِ

ورغم ذلك فإن المتتبع للإنتاج الأدبي لأدباء المهجر يستشف حالة الاغتراب والنفي. هناك دوما ذات متأزمة تعاني من صراع الذات أولا، وصراع الذات مع الآخر ثانيا، والصراع مع المعنى والوجود ثالثا. هذه الحالة أو الحالات جميعها يمكن اختزالها في ثيمة مفهوم "الوطن".. ما الوطن؟ يقول إدوارد سعيد في كتابه (تأملات حول المنفى): "للمنفى شجن دفين لا يمكن التغلب عليه البتّة، فهو ينبع من الواقع الأساسي للمنفيّ، من الانفصام أو الشرخ الذي لا برء منه بين شخص ما ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها". وهذا ما عبر عنه الشاعر اللبناني الشهير فوزي المعلوف في قصيدته عندما قال:

مواطن
MuwatinNet
Muwatin.Net
+44 7426520301

أنا الغريب فلا أهل ولا وطن
إذا انتسبت أمام الناس وانتسبوا
ومن يكون غريباً في موطنه
لا بدع إن أنكرته الأرض والشهب
وفي موضع آخر يقول:
قسما بأهلي لم أفارق عن رضى
أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت بأن أعيش بموطني
عبداً وكنت به من الأسياد

إن محاولة التوصل إلى مفهوم لمعنى الوطن حرفيا ومجازيا كانت وما زالت شاغلا مشتركا لأدباء المهجر. الوصول إلى مفهوم يتوافق والظروف التي يعيشها المغترب يقلل عند هذا المغترب حالة الاغتراب مع الذات والآخر، والوجود بشكل عام. في أدب المهجر نجد مختلف التمثيلات والمعاني الأدبية للوطن من وجهة نظر الأديب المهاجر. هذا المفهوم عن الوطن يتشكل نتيجة للتفاعل بين الماضي والحاضر؛ حيث تلعب الذاكرة فيه دورا قويا تشمل التجارب الشخصية، والوطنية، والسياق الذي حدثت فيه الهجرة من الوطن التقليدي، والولاءات الأيديولوجية والطائفية والأثنية التي تمثل مكونات الهوية العامة.

هذه الاختلافات الهوياتية أنتجت أو أسهمت في إفراز تمثيلات مختلفة، واختلافات مفاهيمية للوطن كفكرة وواقع، لذلك من غير الممكن الإشارة إلى الوطن في أدب المهجر على أنه مفهوم عام أو معمم أو محدد أو ثابت.

لا أتوقع أن هناك إنسانًا قد يكون مستبعدا من السقوط في هاوية الاغتراب؛ فإذا سلم من الاغتراب عن الوطن واقعا، فلن يسلم منها كفكرة، وإذا سلم من هذه الفكرة، فلن يسلم من الاغتراب الداخلي.. شعور الإنسان بالغربة داخل وطنه. بيد أن إنسان الوطن العربي قد يكون متورطا أكثر من غيره في هذا المطب.. في هذا الواقع المرير.

من منا من لم يتأثر بالمعدل السريع والكبير للهجرة من الوطن العربي.. وطن الولادة، إلى الدول الغربية. وطن المواطنة والكرامة. كما يرها البعض. ورغم أن الهجرة واحدة من الظواهر السائدة التي تميز عصرنا الحديث على النطاق عالمي، إلا أن مشاركة العالم العربي في هذه الموجة المتنامية من الهجرة من مختلف البلدان العربية إلى

في هذا العدد من مجلة مواطن، الذي خصصناه حول ثيمة "أدب المهجر الحديث" سنستعرض مفاهيم كثيرة تتعلق بهذه الثيمة من منطلقات مختلفة ومتنوعة. ما الموضوعات التي سينتجها مخيال أديب المهجر وتصوراته عن الوطن؟ ما الفرق بين الوطن الشخصي والمشروع الوطني؟ كيف تم تصوير تجربة الوطن بين التاريخ والثقافة والأيديولوجيا؟

رئيس التحرير

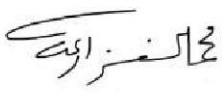

علاء بشير والغراب الشاهد ..
فنان تشكيلي كان طبيبا لصدام حسين

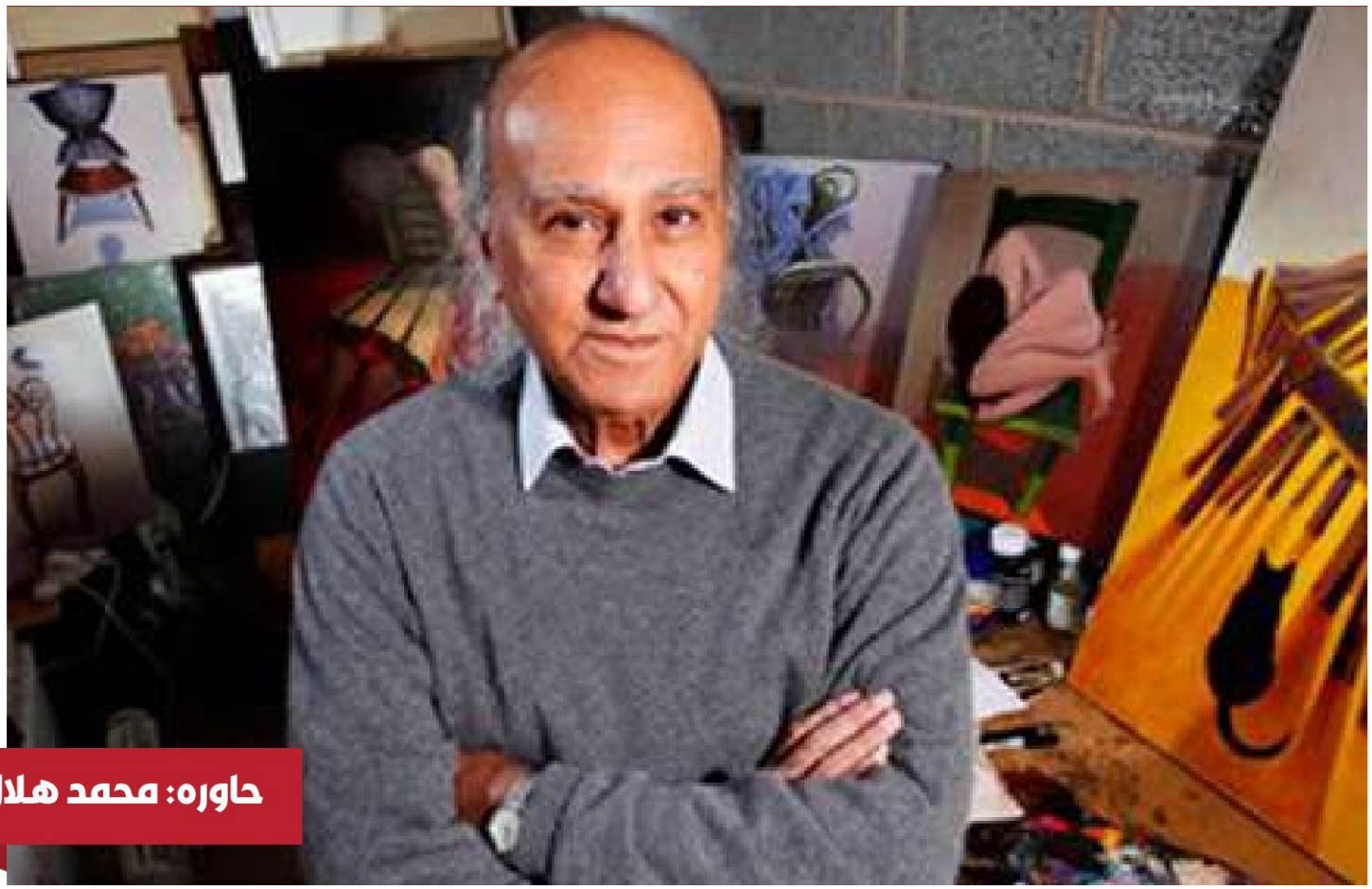

حاوره: محمد هلال

في كهف صغير في جزيرة بورنيو بأندونيسيا جنوب شرق آسيا، منذ أربعون ألف عام، ترك رجل أو امرأة بصمة يده على جدار الكهف دليل على وجوده. تلك اللوحة هي أقدم عمل فني وصل لنا من أجدادنا الأولون. انشغل الإنسان دائما بالفن، بالرسم والتصوير، الحيوانات والطيور على جدران الكهوف قبل نشأة اللغة وبداية التاريخ تخبرنا بأن الفن هو الوسيلة الأولى واللغة الأولى التي عبر بها الإنسان عن ذاته وعن عالمه ومع بداية التاريخ في آكد ومصر ،سومر وبابل كان الرسم والتصوير هي اللغة الأعظم للتعبير. منذ ذاك الماضي السحيق وحتى الآن كان للفنان خصوصيته وروحه المرهفة التي ترشدنا الطريق. في الغربة والاغتراب ينضج الفنان، أكان منأى أم منفى، البعد عن الوطن فرصة لاستكشاف الذات والوطن، لاستكشاف الأنا والآخر.

- لا أعرف لماذا هويت الرسم مبكرا، ربما السبب في كوني الطفل الوحيد لأسرتي ومجالات اللعب خارج البيت معدومة.
- ومهمة الفن الرئيسية في رأيي هو التعبير عن بحث الإنسان عن جوهر الوجود، وجوده ووجود العالم.
- من المحزن والمؤسف أن معظم العرب ولأسباب كثيرة فشلوا في أن يعتمدوا البحث العلمي والمنطق المستند إلى البرهان.
- يقتل الإنسان بدم بارد، ليس من أجل طعامه كالوحوش الضارية لكن من أجل أمور كالعرق والدين والبحث عن المكانة.
- الفن التشكيلي في رأيي أقوى وأكثر عالمية من الكتابة. وأنا مهموم بالإنسان في كل مكان.

علاء بشير فنان تشكيلي، رسام و نحات عراقي، يعمل أيضا طبيبا جراحا متخصصا في الجراحات التقويمية، كان طبيبا لصدام حسين وله تمثال شهير بعنوان الصرخة في بغداد، هاجر إلى لندن في العام ٢٠٠٣ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق. التقته مواطن للتعرف على مسيرته الفنية والإبداعية والوقوف على أهم لحظات التحول في مسيرته الإبداعية والحياتية. وكان معه هذا الحوار:

١- البداية في بغداد ، متى هويت الرسم؟

لا أعرف لماذا هويت الرسم مبكرا، ربما السبب في كوني الطفل الوحيد لأسرتي ومجالات اللعب خارج البيت معدومة، ليس أمامي إلا اللعب في المنزل أو في منازل الجيران المقربين، وقتها انتبهت لحبي للرسم، لم يكن لوالدي أو والدتي أي اهتمام بالرسم لكنهما شجعاني على ممارسة تلك الهواية.

أما عن بغداد في ذاك الوقت، أذكرها جيدا، كنا نعيش في "محلة الفضل" وهي منطقة قديمة جدا تعود لزمن العباسيين. لم تكن مدينة حديثة ومنفتحة كالمدن في تلك الأيام. كانت كل منطقة منغلقة على نفسها، ولو صادف ومررت في غير منطقتك للفتت الانتباه كونك غريب عن تلك الجهة، أعتقد هكذا كان الحال وقتها في تلك المدن القديمة كالإسكندرية أو القاهرة مثلا. ترسخت داخل البغداديون ثقافة التكتل. فالمنطقة والقبيلة والعائلة والطائفة والعشيرة تكتسب أهمية بالغة، رغم ذلك لم يكن أبي أو أمي محبان لهذا النوع من التكتل والانغلاق، منهما تعلمت التسامح مع الآخر.

٢- من الهندسة إلى الطب. كيف أصبحت طبيبا؟

كنت طالبا متفوقا. في الثانوية حصلت على معدل درجات عال جدا يساعدني في التقدم لأي مسار دراسي أريده. كنت أحب الفن والرسم لكن لم يكن متاحا أن أدرس الفنون في الجامعة، فحصلت على منحة في الهندسة المعمارية في أمريكا. رأيت أن الهندسة المعمارية أقرب مجال دراسي لما أحبه، الفنون. لم يتدخل والدي في اختياري، لكن أمي، لكوني ابن وحيد، ولكون الكثير من أفراد العائلة سبقوني لأمريكا ولم يعودوا، رفضت رفضا قاطعا أن أسافر. فكرت فيما أدرس بديلا عن الهندسة. نصحني أبي أن أدرس مجالا بعيدا عن العمل الحكومي، فدرست الطب. وأصبحت طبيبا.

٣- هل أثرت دراسة الطب في فنك؟

دراسة الطب أفادتني أكبر إفادة، في تجربتي الفنية وفي رؤيتي للعالم وللحياة. منذ الطفولة وأنا مهموم بالإنسان، وكنت أحب أن أعبر عن مشكلة الإنسان الوجودية من خلال فني، طبعا كل مرحلة يختلف التعبير حسب الإدراك. دراسة الطب قربتني من المنطقة الحرجة التي كنت أتمنى أن أراها وهي رؤية الإنسان من الداخل، شحمه، أوردته وعظامه. وإلى أي درجة يتشابه الإنسان، فجميع البشر على اختلاف الوانهم واشكالهم ومعرفتهم وذكائهم أو غبائهم وعقائدهم ولغاتهم وثرواتهم ومناصبهم فإن قلوبهم جميعا تنبض بمعدل ٧٥ مرة بالدقيقة. أدركت أن الجميع متساوون، متساوون في عين الخالق، أدركت أن الإنسان يعيش في صراع بين رغباته وبين حقيقته، من هنا اقتربت كثيرا من أزمة الإنسان. ومهمة الفن الرئيسية في رأيي هو التعبير عن بحث الإنسان عن جوهر الوجود، وجوده ووجود العالم.

٤- رغم نصيحة الوالد بالبعد مهنيا عن الحكومة أصبحت طبيبا لصدام، فكيف رأيته؟

تلك مفارقة من مفارقات الحياة، لم يكن لي اختيار في الأمر، ولا يهرب الإنسان من قدره، أنا طبيب. أقدم خدماتي لكل إنسان يحتاج إليها ، أكان رئيسا أو عامل نظافة. كنت الوحيد الذي أجريت عملية جراحية لصدام حسين، لم أشعر ولو لمرة واحدة أنه مريض غير عادي، على سرير المرض يتساوى أمامي الجميع دون أي اعتبارات أخرى.

٥- بعيدا عن علاقة الطبيب بالمريض. كيف رأيت صدام حسين؟

من المحزن والمؤسف أن معظم العرب ولأسباب كثيرة فشلوا في أن يعتمدوا البحث العلمي والمنطق المستند إلى البرهان والدليل في بلورة وبناء أفكارهم وسلوكهم. قاد هذا السلوك إلى الفوضى في بناء مستقبل واضح المعالم. عمق هذا التخبط هو الفشل التام في الاستفادة من تجاربنا السابقة وعدم تكرار أخطائنا . أفضل أن أترك مضمون سؤالك إلى المؤرخين.

٦- متى تركت العراق؟

تركت العراق بعد الاحتلال الأمريكي في العام ٢٠٠٣. بعد كل انقلاب في الحكم تعم الفوضى، عايشت الأمر عدة مرات في العراق. بدءا من الانقلاب على الملك في العام ١٩٥٨ مرورا ب ٦٣ و ٦٨ وحتى ٢٠٠٣. يتحول البشر الوديعين لشخوص آخرين يسرقون ويتصرفون بـغوغائية. تلك علامة استفهام كبرى لدي.

في العام ٢٠٠٣ تأكدت أننا لم نستفد من أي تجربة سابقة للعراق وهذا أمر مؤلم جدا. رأيت الأمريكان يدعون الناس لسرقة البنوك والمتاحف، الأمريكان دخلوا بيتي لسرقته والبحث عن أوراق ،

ومن بعدهم ميليشيات عراقية. إلا إن موقفا واحدا كان الأخير بالنسبة لي ،

من بعده قررت الهجرة وهاجرت، تلك القشة التي كسرت احتمالي كانت حين أوقفتني القوات الأمريكية ومعهم ميليشيات عراقية وأنا في طريقي للعمل لتفتيشي. جمعت حقيبتي وجئت إلى لندن.

٧- ما مفهوم الانتماء من منظورك؟

كل إنسان هو ابن المكان والزمان ، ابن الجغرافيا والتاريخ ، بالطبع يتشكل الإنسان في طفولته من حمولة التاريخية والجغرافية ، من الأهل والأصدقاء، المدرسة والمجتمع. لكن القراءة قادرة على خلق أفق أوسع للإنسان. كنت في الطفولة أقرأ كتبا فلسفية، من مكتبة أبي، كانط، هيجل، أرسطو، أفلاطون، وغيرهم. كنت أقرأ ولا أفهم بالتأكيد كل ما أقرأ لكن تأثير تلك القراءات كان كبيرا علي. عن طريقهم تعلمت التساؤل عن أصل الأشياء، تعلمت ألا أقبل كل ما يقال لي بسهولة ، تعلمت أن أتقصى المعلومة ، تلك القراءات أثرت على وجهة نظري للأمور.

٨- بالحديث عن العراق التاريخي والعراق الحالي، علينا أن نتساءل هل هناك اتصال بين الحاضر والتاريخ أم لا؟ هل هناك انقطاع تاريخي بين العراق الحاضر والعراق التاريخي؟

إذا تأملت في تلك المسائل لوجدت أن الانقطاع التاريخي عن الماضي هو السائد. لدرجة التبجح والتفاخر أحيانا أننا لسنا أبناء الحضارات السومرية والاكدية والبابلية، هناك فرق كبير مثلا بين العراقيين والمصريين، في مصر تجد خيوطا أكبر تربط الحاضر بالماضي، رغم الابتعاد الحاصل في العقيدة واللغة، هناك ارتباط حتى لو كانت خيوط متخيلة أو مستدعاة لأهداف سياسية ، لكن المصريين، المصري العادي في الشارع يشعر بارتباط ما مع تلك الحضارة القديمة. نستخدم فقط الماضي كغطاء، لأننا لم نعد نقدم شيئا للإنسانية، أما الانتماء الحقيقي في رأيي هو الانتماء للإنسان. فكل تلك الحضارات وكل هذا التاريخ ملك لنا نحن البشر.

٩- كيف ترى أثر المهجر في أعمالك؟

عززت الهجرة رؤيتي السابقة عن الإنسان ومعاناته. عن قسوته، عن أزماته وأثر رغباته على سلوكه، وكيف يقتل الإنسان بدم بارد، ليس من أجل طعامه كالوحوش الضارية لكن من أجل أمور كالعرق والدين والبحث عن المكانة.

١٠- تتكرر رمزية الغراب باستمرار في أعمالك، من أين جاءت ولماذا ترمز؟

في العام ٥٧، في طريق عودتي من الكلية للمنزل رأيت أطفالا يسحلون غرابا ميتا في الشارع. بعد سنة في الانقلاب على نوري سعيد ، تكرر نفس المشهد مع رئيس الوزراء. ولو تأملت في قصة أبناء آدم، فالغراب هو الشاهد على أول جريمة ارتكبها الإنسان في الأرض، من هنا حدث الترابط معي، في حادثة نوري السعيد كنت أنا الشاهد ، كنت الغراب. في الثقافة العربية يتشاءمون بالغراب، كأنهم يشعرون بالذنب و يقلقهم وجود الغراب، يؤرقهم الغراب كشاهد على جرائمهم.

١١- يسيطر الأبيض والأسود على مساحات كبيرة في أعمالك، كيف تري اللونين؟

اعتاد الانطباعيون العراقيون على استخدام الألوان بكثافة، وكنت مثلهم. مع الوقت صارت لدي قناعة أننا كلما استخدمنا الألوان أكثر فنحن غير قادرون على التعبير عن الفكرة بصورة صحيحة فنلجأ لتغطيتها ببهرج الألوان. بدأت أتخلص مع الوقت من الألوان البراقة، كأن الألوان هي إغراء للإنسان لينشغل بعيدا عن الحقيقة. لا تساعدك تجاوز سطح الأشياء لجوهرها.

١٢- لديك موهبة أخرى لا يتم الالتفات لها كثيرا وهي الكتابة ، لماذا لا توليها أهمية؟

أحب الكتابة، وأكتب أحيانا، الكتابة أيضا تنشغل بالبحث عن الحقيقة، بالبحث عن جوهر الإنسان والأشياء. لكن التواصل عن طريق الكتابة يضيق حيّز التلقي، فلكي أتواصل أعبر عن قضية تشغلني باللغة العربية فأنا أخاطب من يستطيع أن يقرأ العربية فقط. أنا حين أستخدم الفرشاة فأنا أستخدم لغة عالمية يفهمها الجميع، في كل اللغات. الفن التشكيلي في رأيي أقوى وأكثر عالمية من الكتابة. وأنا مهموم بالإنسان في كل مكان.

تداعيات

سلام لبيروت

بيروت، مدينة الشرق ودرة العرب، واحدة من الدول المشرقية بجانب الإسكندرية وأزمير اللاتي قدمن نموذجا للمدينة الكوزموبوليتانية قبل نيويورك ودبي ولندن الحالية. بيروت مدينة السحر، درة تاج التسامح في بلاد العرب، رغم حربها الأهلية الطاحنة ورغم شبح الانقسام الرازح في فضاء المدنية. وكأن فسيفسائها العرقي والديني هما ضمان استمرارها واستمرار أوجهها المتعددة لا بوجه واحد كأغلب مدن العرب رغم تطاحن هذا الفسيفساء سياسيا ورغبته بالعيش المشترك في آن.

بيروت مهرب الكتاب والمثقفين العرب الساعين للحرية، كم من مفكر ومثقف عربي كانت بيروت وجهته أو محطته الأولى في سبيل الحرية، كم من فنان أو سياسي عربي لجأ لبيروت هربا من ديكتاتور يسيطر على بلاده؟ تفتح المدينة أحضانها دوما لكل ساع لها، تقدم الملجأ والحماية، تضمن له الانغماس في حياة مدينة لا تنسى. بيروت مدينتنا الحبيبة التي يحلم كل كاتب أو فنان عربي بزيارتها، العيش فيها، التعرف على أهلها، النشر في دورها الثقافية.

يوم انفجار المرفأ في الرابع من أغسطس عم الحزن قلوب عشاقها ومحبيها ومريديها، طافت الذكريات في قلوبهم وعقولهم والخوف على مستقبل بيروت ولبنان هل سيمر الانفجار دون أزمات داخلية سوى الخراب الاقتصادي والخسائر من أرواح الضحايا؟ أم أن للطائفية والتحزب في بيروت رأيًا آخر؟ ما مستقبل المدينة؟ هل ستظل مدينتنا الحبيبة بيروت منارة للحرية والثقافة؟ وفي هذا الصدد، دعما ومحبة لبيروت، التقت مواطن كلا من الفنان التشكيلي العراقي جلال علوان والمستشار الكويتي أنور الرشيد والكاتب والمفكر القطري عبد العزيز الخاطر.

جلال علوان بيروت: بيروت عاصمة الحرية والثقافة والسياحة والجمال، هي قبلة من لا قبلة له.

أنور الرشيد: بيروت بها بعض الحرية ولكن دون ديمقراطية، وهذا ما ينقصها لكي تكتمل.

عبد العزيز الخاطر: الواقع اليوم في بيروت سيئ، فبعد أن كانت معقلاً للعروبة أصبحت معقلاً للطائفية.

عن مكانة بيروت

يصف الفنان التشكيلي جلال علوان بيروت فيقول: بيروت عاصمة الحرية والثقافة والسياحة والجمال، هي قبلة من لا قبلة له، هي مفصل ما بين الشرق والغرب، بيروت الأدب بيروت جبران خليل جبران، وإلياس خوري وأمين معلوف وغيرهم. بيروت الشعر بيروت سعيد عقل وأنسي الحاج وإيليا أبو ماضي، بلد الموسيقى والغناء، بلد الأخوين الرحباني وفيروز ووديع الصافي. كانت ملجأ لأدونيس ومحمود درويش، بلد الجبل والبحر ودور المسرح والسينما. مشكلتها الوحيدة هي أنها من دول الجوار لإسرائيل، وما أدراك ما إسرائيل حيث تنحسر الخيارات إما القبول التام لهذه الدولة اللقيطة فتنعم بسلام بطعم الذل، وإما الرفض لتغرق بجميع أنواع المشاكل والأزمات، اقتصادية وأمنية.

زرت بيروت مرة واحدة في سنة ٢٠١٥ لمدة يومين زرت شارع الحمراء وبعض العروض الفنية في گلرياته وشربت القهوة في مقاهيها وأكلت في مطاعمها، كانت زيارة قصيرة ولكن ما زال طعمها في فمي وصورها عالقة في ذهني، حميمة الذوق في كل مكان وديعة تحتضنك وإن كنت غريباً مثقفة حرة وكأنك تمشي في شوارع أوروبا.

ويصف المستشار الكويتي أنور الرشيد بيروت: بأنها عاصمة فريدة من نوعها في المنطقة وما ميزها هي الحرية المفقودة في بقية عواصم منطقتنا، لذلك ليس غريبًا على بيروت أن تكون منارة الثقافة، فلا ثقافة دون حُرية ورغم كل ما مرت به وما زالت تمر به بيروت ستظل منارة للثقافة في المنطقة.

وعن زيارته الأولى يقول: أول زيارة لي لبيروت في عام ١٩٦٦م وما زالت رائحة بيروت عالقة بمخيلتي لما شاهدته بها من تطور مبهر حينها ولغاية اليوم عندما أزور بيروت رغم كل الاختلاف الذي بينها اليوم مع أول زيارة تظل بيروت عروس الشرق مهما اختلف الزمان.

أما الكاتب والمفكر القطري د. عبد العزيز الخاطر فيرى أن بيروت هي ترمومتر صحة الجسد العربي، كل ما يلحق الوطن العربي من علل وأمراض يمكن تشخيصه والاستدلال عليه من خلال وضع لبنان بشكل عام وبيروت بشكل خاص. وضع بيروت ليس سوى انعكاس للحالة العربية، واليوم أصبح كذلك انعكاسًا للحالة الإقليمية كذلك.

واقع بيروت بين الطائفية والتحزب

يرى المستشار أنور الرشيد أن بيروت بها بعض الحرية ولكن دون ديمقراطية، وهذا ما ينقصها لكي تكتمل وتكون نموذجا يتمناه كل حُر، رغم أن الطائفية جذرها الطائفيون إلا أن الشعب اللبناني يرفض الطائفية وهذا ما أثبته الشعب في انتفاضته الأخيرة على فساد الزعماء الطائفيين.

أما جلال علوان فيعتقد أن الطائفية والتحزب هي نتائج وأعراض حالات مرضية في المجتمع، إذ يلجأ المواطن لهذه الاستراتيجيات عندما تقصر الحكومة عن أداء دورها في حماية المواطن وتوفير الخدمات له؛ عندها يلجأ مجبرا للبحث عن بدائل لدور الدولة داخل الدولة في الطائفة أو الحزب.

بينما يرى عبد العزيز الخاطر أن الواقع اليوم في بيروت سيئ، فبعد أن كانت معقلاً للعروبة أصبحت معقلاً للطائفية، الحرب الأهلية أثمرت لبنان هشاً مختلفاً تتقاسمه الميليشيات والأحزاب المنتمية طائفيًا وسياسياً للخارج.

مستقبل بيروت بعد الانفجار

يقول جلال علوان: وقت متابعتي لأخبار الانفجار شعرت بالكارثه بكل المقاييس، ولكني أعتقد أن إرادة الحياة عند البيروتيين ستعيدها من جديد بيروت الجميلة كما أعادوها بعد الحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي، فالحضارة والمدينة في بيروت ليست حالة طارئة فيها وإنما أصيلة متجذرة في نفوس ساكنيها.

بينما يرى المفكر عبد العزيز الخاطر أن انفجار بيروت يمثل انهيار الدولة ومؤسساتها بشكل رسمي. ولابد من إعادة بناء الدولة في لبنان، ولن يتم ذلك وسط حزام عربي ضعيف ومهلهل. فأنا أعتقد أن المنطقة بأكملها في مرحلة إعادة صياغة والمؤسف أننا كأمة عربية لسنا في وضع من يفعل بقدر ما نحن في وضع المفعول به، لذلك لدي قدر من التشاؤم ليس بالقليل وأرجو أن يكون في غير موضعه ومكانه.

بينما يرى المستشار أنور الرشيد أن بيروت ستبقى منارة للحرية والثقافة عربيا، طالما أن الحُرية موجودة وهي جزء من ثقافة الشعب اللبناني ستظل منارة للحُرية والثقافة.

وداعًا أيتها السماء .. رحلة البحث عن الله

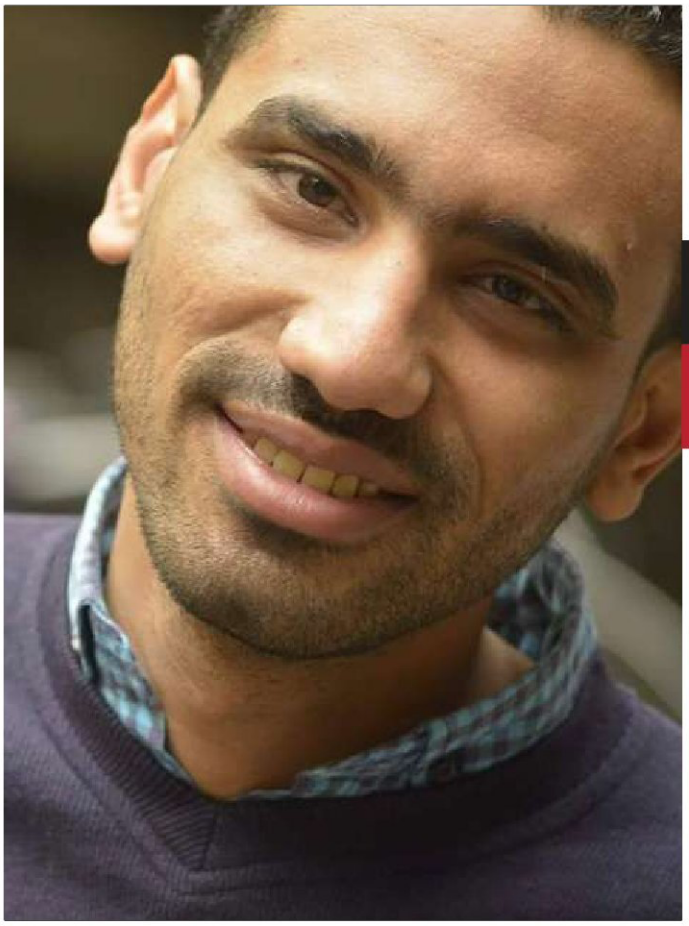

محمد سميح

مدون وقاص من مصر

رواية لعالم شديد الذاتية، بطل يلعب دور الراوي، والعالم أجمع يتمحور حوله، وأفق موضوعات حساسة عن التدين ووجود اللّه ، والأخلاق، وهوية الفرد في الحياة، وبين هذه الخطوط كانت صفحات رواية "وداعا أيتها السماء" للكاتب وباحث الدراسات الإسلامية حامد عبد الصمد ، وعند التعامل مع هذه الرواية نقديًا، يجب فهم طبيعة الأدب الذي تقدم، إذ تميل الرواية لغلبة الأفكار على الأحداث، فتطرح الرواية آراء واضحة عن الحياة والناس في مصر وألمانيا واليابان بشكل مباشر، مما ينهي أنها نوع من الكتابة الذاتية الصرفة، عن محطات هامة في حياة بطل الرواية وأسئلة وجودية عن ماهية هذا البطل الذي لا يمكنه الاندماج التام، بين أهل الريف ولا المدينة في مصر، كما لم تفارقه مشاعره حتى مع السفر لبلاد الفلسفة كألمانيا، أو بلاد الروحانيات كاليابان.

تتسم الرواية في كل أجزائها بطابع أنثروبولوجي، إذ يوجد وصف لحياة الناس في البلدان التي يزورها البطل، ويخيم على هذا الوصف روح الصدمة، فالناس في الريف لديهم أساطيرهم الخاصة عن طبيعة أهل البلد، فهم لا يسرقون وبناتهن لا يمارسن الدعارة، على عكس أهل البلاد المجاورة، فكل الشرور تأتي من الخارج، أما أهل المدينة كالقاهرة، فهم يحيون في قسوة صارمة، وكأن اسم المدينة هكذا لأنها تقهر أهلها، وقد تعرض شاكر -بطل الرواية- لحادثة اغتصاب في صغره من أحد الأطفال العاملين بالورش، وهي الحادثة التي لم ينسَها طيلة رحلته، كما أن الناس في ألمانيا لا يختلفون كثيرًا، فالموظف المصري بسفارة ألمانيا في القاهرة كان يستميت من أجل عرقلة سفر شاكر إلى الخارج،

بينما موظف المطار الألماني ينظر لشاكر نظرة تقول على حسب وصفه: "أنت إيه اللي جابك، هي المشرحة ناقصة قتلى". وكأن البيروقراطية لا ترحب بشاكر في أي مكان.

تبدأ الرواية بوصف طوابير المصريين ليلاً في انتظار بدء العمل بسفارة ألمانيا صباحًا وكأن الجميع يفكر بالهجرة، لدرجة وصف شاكر لسفارة ألمانيا بسفارة النجاة، وبالرغم من سوء الأحوال في مصر، يذكر البطل أن المصريين يتحايلون على البطالة بسبب عدم حبهم لكلمة عاطل، كأن يقف أحدهم بجانب هذه الطوابير أمام السفارة ويبيع الشاي، ويشير شاكر لنظرة ابن عمه عن فجر الفتيات الغربيات، وهو نفس ما يشاع بين أهل القرية عن فجر بنات البندر، وكأن الرواية تشير لعدة مركزيات ثقافية، تحط من قدر كل ما هو خارجها، حتى لو كان ممثل تلك المركزية هامش بالريف.

تبدأ الصدمة الحقيقية لشاكر عند الذهاب لألمانيا، إذ أن الألمان ليسوا زرقي العيون ولا شقري الشعر ولا حتى طوال القامة، فتفاجأ أمام حقيقة أن الألمان بشعر بني وعيون داكنة، كما لم يجد الفلاسفة بالشوارع، القمامة والمشردين، مما جعله يشعر أن كل بقاع العالم بقعة واحدة تختلف شكلاً إلا أنها تحمل المضمون نفسه في النهاية، من درجات الحياة العادية وظلم القهر وعدم الراحة، ورغم الوصف السلبي والطبيعة المتناقضة للناس بألمانيا ومصر، يذهب شاكر إلى درجة حياد تجعله يسحب الأحكام نفسها على نفسه أيضًا، حين التقى بفتاة أجنبية في مطار القاهرة اعتقدت أنه يختلف عن بقية المصريين ولم يرغب في أخذ الهدايا منها، لكنه اعترف أن معاملته الجديدة كان سببها رغبته في الذهاب بها إلى إحدى الفنادق الفاخرة وأخذ عمولة ٢٥٪ على كل ليلة تقضيها بالفندق.

لم يفارق شاكر في ألمانيا النفاق الذي ادعاه بالقاهرة أمام الفتاة الأجنبية، وظل بألمانيا يدعي التدين والأخلاق، كان يمارس النفاق بشدة، كان يقضي الليل يشاهد أفلام البورن ويدفع للعاهرات عبر التلفون دون أن تدري زوجته، وكأن هناك تناقضا شخصيا لا يمكن تسويته داخل شاكر نفسه أو داخل الآخرين حسب رؤيته لهم، وفي هذه الأثناء يحاول شاكر الاندماج مع ثقافة الألمان إلّا أن ذلك ينقله لصدمة جديدة إذ يصاب بانزلاق غضروفي على أقل محاولة للتزلج على الجليد، كما أن محاولته الاستمتاع بالموسيقى الكلاسيكية الألمانية لم تكن أبدًا مجدية، فكما لم يستطع أن يكون ريفيا،

لم يستطع أن يكون قاهريًا، ثم يتكرر الشيء ذاته، فلا يمكنه أيضًا الحياة كالألمان.

يعيش شاكر حالة من الهوس الجنسي، إذ لم يتعرض في صغره للاعتداء الجنسي مرة واحدة بل مرتين، مرة قبل أن يدخل المدرسة عن طريق إحدى الصبيان "الصنايعية"، ومرة أخرى بالمدرسة من زملائه مجتمعين بالتناوب في الاعتداء عليه، جعلت هذه التجارب آلام الهوية أشد صراعًا داخله، فهو لم يكن يعرف إلى أي مكان أو ثقافة ينتمي، إذ يراه أطفال القرية صليبيًا، وهو في نظر أهل المدينة ريفي، وفي نظر الألمان عربي مسلم، ولكنه حقًا لم يكن يعرف من يكون؟ وإلى أي ثقافة ينتمي؟ وحتى جنسيًا، بسبب أحداث الاعتداء تلك، أصبح يشعر بالانجذاب للأطفال، وقد حاول في مرة الاعتداء على طفل ولكنه تراجع في اللحظات الأخيرة، كما أنه كان شديد الانجذاب سريع الهياج تجاه النساء، وكان في نفسه شعور بنقص يحاول إثبات عكسه، يسعى دومًا لتأكيد رجولته، ليتعمق صراعه الهوياتي وينتقل حتى إلى الميل الجنسي، فلم يعد واثق تمامًا، من هويته الجنسية دائمًا.

لا تحتوي الرواية على بناء درامي متكامل، فكل الفصول سرديات شخصية للبطل، الذي يعاني من صراع الهوية وعدم الشعور بالانتماء،

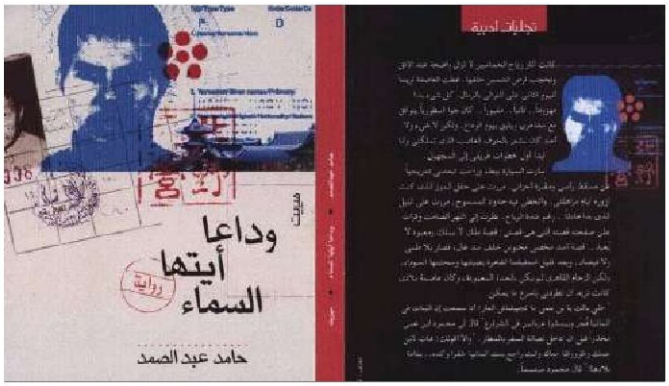

ويمكننا تحديده عدة سمات تحرك البطل وتشكل سلوكياته، على رأسها دور الأب القاسي رجل الدين المؤثر اجتماعيًا بين أهل القرية، لدرجة أن شاكر كان يربط بين قوة وصرامة والده وقوة وصرامة اللّه في البطش والعقاب، والطبيعي حين تكن ابنًا لشيخ ستسيطر الأجواء الدينية بكل مثالياتها على حياة الابن، الذي يتفاجأ بوجود الحشيش في درج أخيه، بل أن والده أيضًا يتعاطى هو الآخر الحشيش، كانت مثل هذه الصدمات أمرا دائما في رحلة شاكر أثناء بحثه عن اللّه ، إذ يصطدم دومًا بتناقضات الواقع مع استقامة الأفكار، وكأنها معاناة تغلف الحياة، ثمة غياب للكمال، وكان هذا الغياب هو المحرك الرئيسي في رحلة بحثه عن اللّه .

الرواية أشبه باعترافات جان جاك روسو أو مذكرات لويس بونويل، تتميز بجرأة البطل في تعرية ذاته والتعبير عن أخطائه والشعور بالنقص، ولكنّ بها جانبا أيدلوجيًّا يرفض ثقافة مجتمعه، إذ إن هناك حوارات كثيرة وأحداثًا داخلها تدور حول موضوعات اجتماعية وقضايا هامة كختان الإناث والذكور،

ومفهوم الشرف وحصره في جسد المرأة، بخلاف الهوس الجنسي، المتمثل في تطلعات وأفعال شاكر وأجزاء من حياته تعرض فيها للاغتصاب مرة بالشارع والأخرى بالمدرسة، كما سرد طبيعة التنمر بين الأطفال كأمر معتاد وجزء من ثقافة عامة تقوم على القهر، إذ يرى شاكر أن النساء لسن مقهورات تمامًا، وأن بعضهن داخل القرى يقدن الرجال، إلا أن ثقافة الناس مركبة تعتمد على قهر متبادل للأضعف دائمًا، وهذا ما رآه شاكر في تعرضه للاغتصاب خارج البيت، وضربه من والده داخل البيت.

لقد كان شاكر متقلبًا دائمًا لا يجد أرضًا صلبة يثبت أقدامه عليها، ومن حفظ القرآن لحب الصوفيين للبحث عن اللّه، ومجاراة الماركسيين، والانضمام إلى الإخوان المسلمين، ثم السفر إلى ألمانيا ومن ألمانيا الهروب الصغير إلى اليابان، ثم العودة بين هنا وهناك، لم يجد شاكر نفسه في كل هذا الهروب، لم يستطع مواجهة والده بحقيقة ما يحمل من مشاكل داخله، لا يمكنه حل شيء، إلا لوم نفسه، لوم الآخرين لوم الحياة، كان بائسًا لدرجة عدم الانتماء لأي شيء، يبحث عن اللّه لينقذه من كل هذا الضياع في العالم والأشياء، فأينما ذهب وكيفما فكر، كان لا يجد إلا ألم، ونقص ومعاناة. وكان سؤاله الغاضب دوما أين كان اللّه حين تعرض للاغتصاب.

أدب المـــهجر.. الثورة على القديم

أوزوريـــس
كاتب عربي تحت اسم مستعار

في ذكرى مرور قرنٍ من تأسيسها، تظل الرابطة القلمية لأدباء المهجر برئاسة جبران علامةً فارقةً في تاريخ الأدب العربي استطاعت أن تخرجه لرحاب العالمية وكسرت العزلة الأدبية التي ظلت تحتكر الشكل الأدبي في صورته التقليدية القديمة البعيدة عن الواقع الاجتماعي لمجتمعات القرن العشرين.

بُعَيد الاحتلال العثماني والنكسة الحضارية التي ألحقها بالمجتمعات العربية على مدى أكثر من خمسة قرون، كان الناتج الأدبي مستمرًا في استحضار قوالب الأدب وأساليبه بحنينيةٍ لعصور ازدهاره العباسية والأندلسية ببحورها ونحوها وعروضها وحتى مواضيعها نفسها. هذا الأمر كان أشبه بمرثيةٍ فنيةٍ تزيده بعدًا عن مجتمعه المحلي والمجتمع الإنساني ككل. كانت محاولة كسر هذه النمطية بالذات أشبه بإعادة ترتيب وصياغة فكر المعبد داخل دينٍ شرسٍ وعنيفٍ أيضًا، وقد كانت الرابطة المهجرية في الولايات المتحدة من الأدباء العرب كجبران ونعيمة وأبوماضي ورفاقهم هم رواد هذه الحركة التي لم تقف عند تغيير القالب الأدبي في اللغة العربية بل تجاوزته لمواضيعه التي تلمس حاجة المجتمعات العربية حتى وقتنا هذا.

إنه وحين دراسة تاريخ الأدب الإنجليزي مثالًا وملاحظة مراحل تطوره من حيث الأسلوب والقالب الأدبي والموضوعات التي يتبناها، نجد أن الحركة الأدبية كانت متأخرةً عن ذلك وظلت الطبقة الأدبية عالقةً في مكانها لقرون، ولذا كان من المحتم محاولة خلق أسلوبٍ أدبيٍ جديد عني به جبران وأقرانه في ما يسميه الدكتور الناعوري بالأسلوب الجبراني.

الأسلوب الجبراني كما يبدو في أعمال جبران كالنبي والأجنحة المنكسرة ومرداد لميخائيل نعيمة يظهر أقرب منه للطابع الرومانسي في العصر الإنجليزي من حيث مخاطبة الشعور والمجرد واستخدامه للغة الشاعرية والنثر الشعري أو الموسيقي مثالًا.

التأثر الصوفي الطابع ظاهرٌ على أعمال هذه الفترة وهو ما برز في فلسفة جبران وأدباء الرابطة من وحودية الوجود والعلاقة الفردانية بالذات الخالقة، وهو بالإضافة لأثره الأدبي كان له أثره الاجتماعي أيضًا في معتقداتهم وتأثير إنتاجهم الأدبي على الموروث الديني التقليدي للمنطقة العربية كما سنأتي للحديث عنه.

إن الأسلوب الجبراني والنمط الرومانسي بشكلٍ عام له ارتباطه الوثيق أيضًا بالفلسفة الصوفية وعملية تخلُّقِ الفن، أي ما يمكننا وصفها بالمدرسة التعبيرية في تاريخ الأدب العربي الحديث التي تحمل هذه الفكرة والفلسفة حول تشكل الفكرة والموضوع الأدبي وخروجه في شكله الفني للمتذوقه، والتي كما يقول الدكتور جابر عصفور ما زالت طاغيةً على الأسلوب الأدبي العربي وظاهرةً في الكثير من النصوص الأدبية،

والذي يمكن أيضًا الاطلاع على النظرية التعبيرية أكثر حول هذه الموضوع في كتابه نظريات معاصرة.

لقد منح هذا التغيير العلاقة بين الأديب والقارئ بعدًا أقرب وأكثر أُلفةً من حيث جمال العبارة وبساطة المفردات ومخاطبتها للشعور الذي جعلها أقرب للجميع على نفس ما قاله نيتشه في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) على أنه كتابٌ للجميع، ولعلها أحد الأسباب التي جعلت الدكتور الناعوري يحتمل تأثر الأسلوب الجبراني بأسلوب نيتشه على وجه التحديد في كتابه هذا، ناهيك عمّا اتسم به أسلوبه السردي من نثر موسيقي يجمع بين النص المرسل والشاعرية والإيقاع الموسيقي كما عند نيتشه ووايتمان.

بالمناسبة، فحركة أدباء المهجر أيضًا كما هي صنعت تحولًا في الشكل الأدبي العربي على مستوى اللغة والأسلوب، بحثت في موضوعات مختلفة ومغايرة عما كانت تتسم به العصور السابقة من حيث ما يمكن تسميته بأدب اللحظة، أي تمحور الموضوع في الحدث ذاته وانكفاؤه عليه وهو الأسلوب نفسه الذي اتسم به النص الأدبي المتخلق عبر استدعاء هذه الأساليب القديمة لولا ما أحدثته حركة أدباء المهجر في الولايات المتحدة والبرازيل من تغيير.

هذا التغيير مثلما كان ثورةً على النمط التقليدي القديم في قولبة العمل الأدبي، كان أيضًا بمثابة ثورةٍ نقدية للركود والجمود الفكري المتعصب للتقاليد القديمة والميثولوجيا الكهنوتية، بصفة المعبد كآلة تشكيل وعي المجتمع العربي عمومًا وتأثيره الحاسم في تقرير مصيره.

كتب سلوتردايك كتابه (الإنجيل الخامس لنيتشه) حول كتاب هكذا تكلم زرادشت تحت هذا العنوان الذي كان نيتشه نفسه حين أنهاه تحدث لأحد أصدقائه أنه كتب الإنجيل الخامس. وهو كما يقول نيتشه عنه أنه بمثابة اعتذار زرادشت عن الأخلاق التي هي من صنيعته وبوصفها خطأً شنيعًا ارتكبه في إدراكه ديناميكية الصراع بين الخير والشر، في بعثٍ وخروجٍ جديد له يكشف عن الحكمة ويعلن موت الإله.

في الرابطة القلمية لأدباء المهجر التي يرأسها جبران كان أبوماضي هو أقرب أعضائها للجرأة حول هذا الأمر الذي يعرضه نيتشه حول الانقلاب على المعبد وإنكار مسلماته اليقينية حول الغيب في الكثير من أشعاره.

يتحدث سارتر ناقلًا عن دوستويفسكي قوله في إحدى مناظراته "إنه إذا ما أنكرنا وجود الرب، فكل شيءٍ مباح!" ، هي ذاتها محاولة أدباء المهجر الوقوف في وجه السطوة الكهنوتية للمعبد على المجتمع العربي العالق في سلاسل الشريعة والرؤية التقليدية للنبي وللّه. ولذا كان لا بد من إعادة تقديم هذين الاثنين بصورة مختلفة عما يألفها العرب ويعرفهم عن طريق المعبد لتمثل هذه الخطوة حركة إصلاحٍ ديني واجتماعي تخرج من الوسط الفني الأدبي المهجري ذي الطابع الإنساني.

وبالفعل بدأ جبران في كتابة أناجيل جديدة تقدم وتؤرخ مسير وفلسفة مسيحٍ آخر غير الذي يعرفه الناس ويقدمه المعبد، إلهًا ونبيًا أكثر إنسانيةً وقربًا من البشر، يقدم لهم الحرية ويعاملهم كأحباءٍ ويوصيهم بالحب والسلام. المسيح ابن الإنسان، المسيح الذي رآه جبران كما يقول الدكتور ثروت عكاشة.

كان كتاب النبي وحديقة النبي بمثابة توثيقٍ لرحلة مسيحٍ آخر يعرفه جبران كآخِر حواريه وأصدقهم يحاول تقديم العلاقة الإنسانية مع الآلهة بمثابة علاقةٍ تقوم على علاقة البشر مع بعضهم،

وعلى الحب وبالحب وحده تنقلب على كل قيود الشريعة التي استمر في وصفها بهذا الوصف في قصصه القصيرة وفي الأجنحة المنكسرة وتمجيده لأبطال الرواية في خروجهم عن المألوف وعن الإطار الأخلاقي التي يضعها لهم المجتمع.

خليل الكافر، عيسى ابن الإنسان، الأجنحة المنكسرة وحديقة النبي والكثير غيرها كانت ثورةً قيمية وفلسفية حقيقية في وجه التقليدي والماضوي المظلم ومفتاحًا يؤسس لإصلاحٍ ديني يتأخر عنه واقع المجتمع الشرقي قرونًا في حين كان قد انتهى منه الغرب ومضى يشق طريق خلوده ورخائه الحضاري، والذي للأسف مازالت المجتمعات الناطقة بالعربية تقبع في قيود وسلاسل هذا التقليدي بعد مرور قرنٍ من الزمان عليها وعلى حركة جبران ورفاقه في المهجر.

من جهةٍ أخرى وبتأريخ بعض النقاد العرب ينتهي العصر الحديث في تاريخ الأدب العربي مع النكسة العربية ستينيات القرن الماضي، والذي كان أدب المهجر مكونًا أساسيًا لها كان قد انتهى بعد تفكك رابطة المهجر ووفاة جبران وسقوط رفاقه تباعًا بعد ١١ عامًا من عطائها، إلا أن لثورتها على القديم نكسةً أخرى خاصةً بها وهي ما سمي بالصحوة الإسلامية نهاية سبعينات القرن الماضي.

الصحوة الإسلامية وظهور الإسلام التقليدي في مشاريع سياسية مختلفة أعاق جهود الأدب المهجري ومحاولته انتشال المجتمع العربي من واقعه المتأخر في السباق الحضاري الجاري من حوله، بمثابة قيم المعبد وسطوته السياسية والاجتماعية على الوعي العربي أهم أسباب تخلفه وتأخره أمام الأمم الأخرى.

في وقتنا الحالي، مسمى "المهجريون" و"أدب المهجر" أصبح أقرب للتعريف بأدباء العربية المهجرين والمنفيين واللاجئين في مختلف بقاع العالم بعد أن كان عنوانًا يعرف به أعضاء الرابطة القلمية في نيويورك أو أقرانهم في رابطة البرازيل، وهم الآن في هذه اللحظة أمام امتحانٍ أصعب في مواصلة هذه الثورة المهجرية في مجتمعاتهم الأم والعودة من حيث بدأ جبران ورفاقه.

سهيـــل إدريـس .. كيف سرقت غواية الأدب غطاء الدين؟

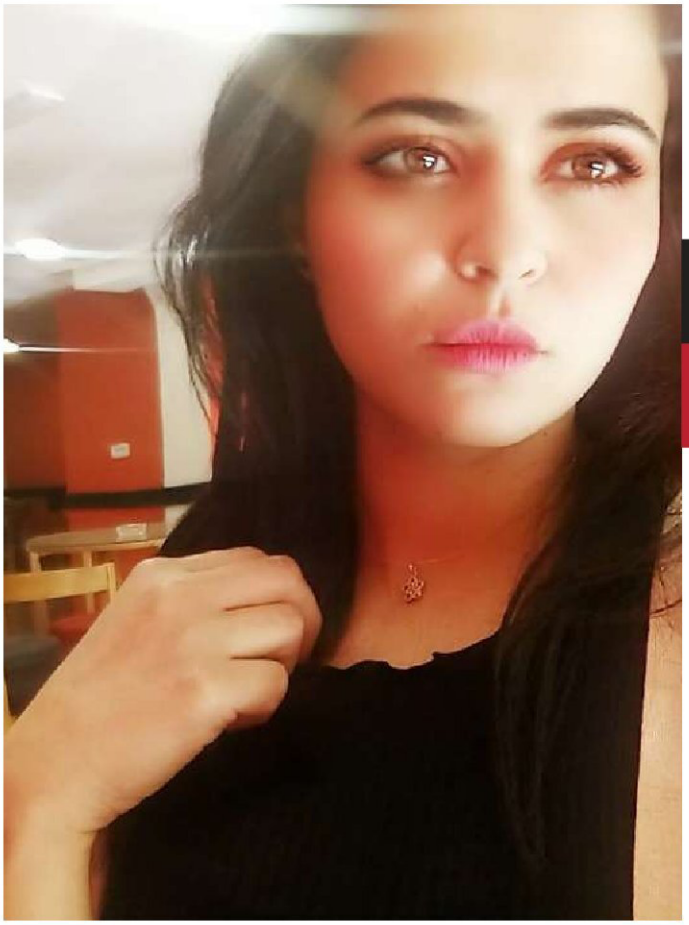

زكية بن خذير
كاتبة وباحثة من تونس

هكذا كتب حنا مينة لجريدة السفير في رحيل سهيل إدريس ، إلى جانب جملة من الكتاب والشعراء والفنانين الذين رثوه بحرقة، ولعل نظرة بسيطة على ما نشرته السفير في رحيل سهيل إدريس كافية لنعي أننا أمام شخص استثنائي. إن الحديث عن سهيل إدريس أو سرد بعضٍ من فصول حياته ليس بالعملية السهلة أو الميكانيكية البسيطة.

غادرنا سهيل إدريس في التاسع عشر من فبراير سنة ٢٠٠٨ عن عمر يناهز ٨٣ سنة، كانت مكللة بالكد والعطاء والإسهامات المنقطعة النظير في الساحة الثقافية العربية، فهو قامة أدبية وثقافية وسياسية ستظل موجودة بوجود الأفكار التي دافع عنها والتي نظّر لها وانحاز إلى صفها.

ولد سهيل إدريس ببيروت سنة ١٩٢٥، درس بكلية الشريعة وتخرج منها شيخا ورجل فقه، لكن بعد تخرجه سنة ١٩٤٠، سافر ليتابع تعلمه في باريس قصد التحضير لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي في جامعة السربون، ومع هذا الطريق الجديد سيطرت عليه غواية الأدب العربي وبدأ مع هذا البحث يلين الغطاء الديني لتتجلى غواية الأدب فيه أكثر ليكتب إثر عودته من باريس "الحي اللاتيني" التي تعد الأثر الذي خط فيه تجربته التي تشبه جل تجارب أدباء المهجر تلك التي تميزت بالتجاذبات وبالثنائيات بين الشرق والغرب، بين الغربة والوطن، بين التحرر والكبت، هذه الثنائيات التي حددت الإطار الذي تدور فيه أحداث هذه الرواية والتي تؤرّخ لصاحبها ولجل التجارب المشابهة، والتي قال عنها، أي الرواية، نجيب محفوظ في جريدة النهار أنها معلم من معالم الرواية العربية الحديثة.

كما قال أحمد كمال زكي إن سهيل إدريس استطاع أن يجعل النفس الإنسانية مسرحا للصراع بين بيروت وباريس، بين الشرق والغرب: الشرق بأديانه وأخلاقه وتقاليده وصموده ورغبته في التحرر، والغرب بتقدمه وتحرره وثقافته، وبنزعته الاستعمارية أيضا.

نهل صاحبنا من التيارات الفلسفية الغربية وسبر أغوارها، خاصة التيارات الوجودية، عبر جريدة les temps modernes التي كان يديرها جون بول سارتر آنذاك، وعبر القراءات وعبر الاحتكاك المباشر مع عديد الأعلام، ومن خلال الترجمات، وهو ما أثر في فكره وكتاباته فيما بعد. أنشأ كاتبنا مجلة الآداب سنة ١٩٥٣ بالاشتراك مع بهيج عثمان ومنير البعلبكي وآخرين، ثم تفرد بالمجلة سنة ١٩٥٦، وفي السنة نفسها أسس دار الآداب رفقة نزار قباني الذي اضطر أن يترك الدار بسبب اجتياح الوزارة الخارجية السورية.

قال سهيل إدريس عن دار النشر تلك في إحدى اللقاءات التلفزية أنها تأسست لتغطي خسائر المجلة؛ ذلك أن مجلة الآداب ليست ممولة من أحد وأنه يرفض التمويلات للحفاظ على حرية الخط التحريري للمجلة. وعمل كاتبنا أيضا في سلك التعليم مدرسا للغة العربية والنقد والترجمة في عدة جامعات ومعاهد.

وأسس اتحاد الكتاب اللبنانيين مع قسطنطين زريق ومغيزل ومنير البعلبكي وأدونيس، وانتُخِب أمينا عاما لهذا الاتحاد لأربع دورات متتالية.

في رصيده العديد من الإنتاجات الأدبية بين الرواية والقصص والمسرحيات والدراسات، من أهم أعماله: أصابعنا التي تحترق، الحي اللاتيني، معجم المنهل، كما ترجم "الغثيان" لجون بول سارتر، و"الطاعون" لألبير كامو، والسيرة الذاتية لسارتر، بالإضافة إلى حوالي (٢٠) كتاب مترجم بين دراسات وروايات وقصص.

نحن بصدد كاتب استثنائي استطاع أن يمزج بين تكوينه الديني وبين ما حصله في السربون من معارف بالفلسفة الوجودية ليخرج لنا في نموذج المثقف الملتزم المنتمي لبيئته، المنغمس في قضاياه الحقيقية مشتبكا معها، دون أن تجعل منه الفلسفة الوجودية بالونا يطير بعيدا عن الواقع ودون أن يجذبه التكوين الديني لما تحت الأرض وإلى عوالم الغيب.

فكان نموذجًا للثقافة المتكاملة المتوازنة فهو طالب عربي تحصل على تعليم تقليدي تمكن من خلاله من إتقان لغته وآدابها ثم يكمل تعليمه في فرنسا بالذات، التي كانت وجهة لطالبي العلم والتي أسهمت في تكوين العديد من المفكرين والفلاسفة نظرا للمكانة التي كانت تقدمها للعلماء وللعلم،

ثم إنّ صاحبنا لم يكن مجرد روائي عادي (وهو روائي ممتاز) بل كان أيضا صاحب قضية ورسالة، هذه الرسالة والقضية التي بلورها صلب مجلة الآداب، وبعد ذلك في دار النشر التي تميزت بمضمونها العصري المستنير المتشبث بجذوره والمنفتح على القيم الإنسانية في بعدها الكوني والوجودي. أما سياسيا فقد تبنى الفكر العروبي ولعل عدم اندماجه في السياسة بمعناها العملي الحزبي هو ما جعله ينجو من السقطات والعثرات التي يتعثر بها ممتهنو السياسة الذين عاصروه.

وقد كان عنصرا فاعلا من العناصر التي جعلت لبنان يلعب دورا ثقافيا طليعيا على المستوى العربي في النصف الثاني القرن العشرين، ذلك إن سهيل إدريس كان من الذين أدخلوا العنصر العربي أو العروبي في العملية الثقافية التقدمية، ثقافة قادرة على الأخذ من الفلسفات والثقافات الكونية ما يُمَكِّنها من التوغل في واقعها وتحليله تحليلا قادرا على حلحلة الأزمات، وقادرا على إنتاج شكل ثقافي أصيل ومتجدد ومتحرر دون أن يتم إفراغه من محتواه المحلي العميق الذي يربطه بهويته وبالتالي تمثله الوجودي التاريخي والجغرافي، ثقافة تنتمي لجغرافية عربية في زمن معين،

لتكون مقاومة زمن الحروب والطغيان وتنتج أشكالا ثقافية مقاومة مثلها، متبلورة في شتى التعبيرات الثقافية من القصة والقصيدة والأغنية دون أن ينفي الالتزام بالقضايا الواقعية، انتماءها للكوني والعالمي ...

ومثل سائر أدباء المهجر الذين حملوا معهم الهم الوطني والعربي إجمالا إلى الغرب وحملوا معهم صورة هذا الوطن هناك وبلوروا الصور التي أرادوها لهذا الوطن فإن سهيل إدريس حمل لبنان بين طياته وكان يتجول معه في الحارات الباريسية وحين عاد للوطن أخذ معه الفلسفة الوجودية التي مزجها بعروبته لينحت بها ومنها ومن خلالها ملامح الوطن الذي يريده والذي يطمح إليه، فصب هذه الملامح في مشروع كامل متكامل من الأدب والكلمة الحرة وكرس حياته كاملة في سبيله.

في البدء كانت مجلة الآداب، ومن بعدها دار الآداب، مشروع يحمل ملامح وطن حر، رايته الكلمة الحرة. وهنا لا نستغرب من أنه كان يوصف بـ"المؤسسة الثقافية" العريقة والمتجددة، ففي حوار معه نشرته القدس العربي، سألته "يمنى العيد": هل تعتبر هذا المشروع بمثابة رسالة؟ وكان جوابه:

"نعم، هو رسالة واعية حملتها معي، من باريس، بعد تعرّفي إلى ثقافة الغرب، وبشكل خاصّ إلى فلسفة سارتر الوجوديّة، وذلك من منطلق حرصي على "إبراز الأدب الجديد الواعي الذي يستمد حرارته من أرضنا". وجعلت من صفحات مجلة "الآداب" مساحةً لحضور الأقلام المبدعة، والأقلام الواعدة، ولكلّ فكر يناقش ويطرح الأسئلة، ويكشف بجرأة ما غرق في عتمة القمع، وحرمتْه الرقابةُ من الإفصاح. الهويّة العربيّة هي هويّتُنا، والالتزام بقضايا الواقع العربي لا يعني انغلاقاً على الذات، أو موقفاً عنصريّا عدائيّاً من الآخر، أو تمسّكاً أعمى بالتراث، أو إنتاجاً أدبيّاً على حساب حريّة الصنيع الفني الذي هو من شأن المبدعين، كما هو من صميم حريّتهم. هذا الموقف الفكري يتمثّل عمليّاً، بالنسبة لي، في نشر مقالات المبدعين في المجلة، وإصدار كتبهم عن دار الآداب إضافة إلى احتضانهم ومتابعتهم. يكفي أن أشير إلى الروائي الكبير حنا مينة الذي لازم الدار، وإلى الشاعر العظيم نزار قباني الذي التزم، لفترة طويلة، بنشر دواوينه في دار الآداب."

ومن خلال هذه الإجابة تبين طينة الرجل المبنية بالحروف والكلمات، هذا الرجل الموسوعي بامتياز والجدير بالملاحظة أن إجابته لم تكن مجرد سرد مغرور، بل هذا ما بلوره طيلة حياته في ذلك المشروع الضخم الذي يحمل ملامح "للوطن الحلم" الوطن الآخر الكبير المحرر المبدع المنتج الحصين ضد الرجعية وضد الطائفية والعنف والإرهاب.

إنفوجرافيك

أمجد ناصر

حياةٌ كسَردٍ مُتَقَطِّع

أديب وشاعر عربي

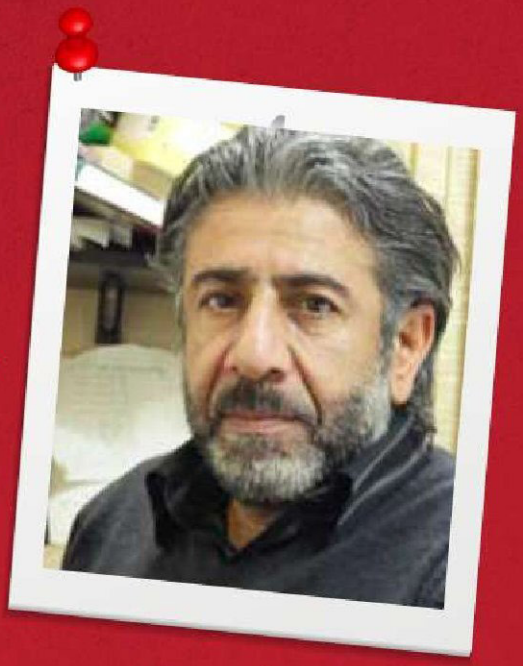

- ولد في الأردن عام ١٩٥٥ باسم يحيى النميري في عائلة بدوية لأب يعمل في الجيش الأردني.
- انضم للعمل الفدائي الفلسطيني بعد تخرجه من المدرسة الثانوية.

غادر إلى لبنان عام ١٩٧٧، ليكمل النضال مع الفدائيين الفلسطينيين أثناء مواصلة دراسته الجامعية في جامعة بيروت العربية.

أصدر ديوانه الأول " مديح لمقهى آخر" عام ١٩٧٩، حيث احتفى بالحياة اليومية وتفاصيلها.

"ولي أن أتابعَ هذي الطيور التي
تتشـــرَّبُ روح الفتـى
قهوةً في الصباحِ المديدِ
وتستلُّ من دوحةِ القلبِ
نصـلَ القصـــائدِ "

بدأ من ديوانه الشعري الثاني " منذ جلعـاد" هجرة "التفعيلة" إلى " قصيدة النثر"

هاجر إلى لندن وعمل في جريدة القدس العربي منذ صدورها عام ١٩٨٩.

" إنه الليلُ.
سيجد إليك طريقا أنى كنت
فتأهب كي تقول له وداعا"

توفي في لندن، أكتوبر ٢٠١٩

بين أدب المهاجر قديـــما وصــور الاغــتراب حديثا

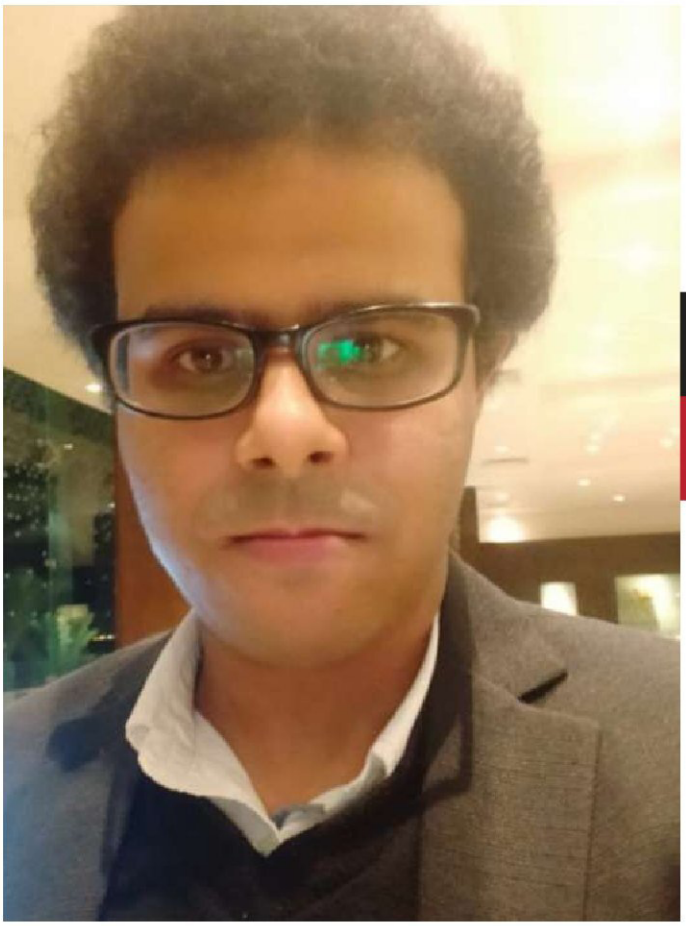

محمد هشام
كاتب من مـصر

أدب المهجر/مدرسة المهجر "الأدب المهجريّ" هو الأدب الذي أنتجه الأدباء العرب الذين قاموا بالهجرة من مواطنهم إلى الأمريكتين، إذ أجبرتهم الظروف القاسية على الهجرة، وهؤلاء الأدباء هم من أطلق عليهم أدباء المهجر.

و قد انتشر أدب المهجر في الأمريكتين، وكذا في الأدب العربي،

وصار اتجاهًا قائمًا بذاته، ومدرسة خاصة تُدعى بمدرسة المهجر في الأدب العربي، وقد تشكل من هذه المدرسة عِدة روابط أدبية، كان أشهرها وأكثرها استمرار، الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية، حيث كان أعلام كل اتجاه وشعراؤه هم الأشهر وسط المهجريين، حيث عرِف من أعضاء الرابطة القلمية جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبوماضي، ورشيد أيوب ونسيب عريضة. وقد عمدت الرابطة القلمية إلى سبر أغوار الحياة وتأملها خلال تأمل النفس البشرية ومراقبتها على عواهنها، ومن هنا كانت العناصر الإنسانية جلية في سمات أعمالهم وإنتاجاتهم، وهي المزية التي قد أسبغت على أدبهم وغرست في نفوسهم نتيجة معاناتهم في الغربة والتعلق بأوطانهم.

يقول إيليا أبوماضي:

أنا لا أذكرُ شيئاً عن حياتي الماضِيَةْ
أنا لا أعِرفُ شيئاً عن حياتي الآتيَةْ
لي ذاتٌ غيرَ أني لسْتُ أدرى ماهِيَهْ
فمتى تعرفُ ذاتِى كُنْه ذاتِى؟... لستُ أدرِي!!

وكانت هذه الجماعة تميل إلى التجديد، والثورة على الشعر التقليدي، فكان شعراؤها حملة مشعل التجديد في شعر المهاجر. وتأسست الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية (نيويورك) في عام ١٩٢٠.

أما العصبة الأندلسية فقد قدمت أبرز شعراء العرب أمثال، ميشيل معروف وهو أهم مؤسسيها، بالإضافة إلى شكرالله الجر، رشيد الخوري، نظير زيتون، جورج معلوف وإلياس فرحات. وقد تأثر أصحاب هذه المدرسة بفنون وأساليب الأندلس خاصة أدب المقامة، وكانت أهدافهم تتعلق بالحفاظ على اللغة العربية، والدفاع عن التراث الشعري، وقد برزت النزعة الصوفية الزهدية في أعمالهم. تأسست عام ١٩٣٣ في أمريكا الجنوبية (البرازيل)، وتناثر أعضاؤها في دول أخرى مثل الأرجنتين والمكسيك وفنزويلا. وهناك روابط أخرى مثل، رابطة منيرفا والتي أسسها الشاعر المصري المهجري د. أحمد زكي أبوشادي عام ١٩٤٨ في نيويورك، وكان رئيسها، وانتهت بوفاته، وليس لها أثر كبير في الشعر المهجري. وكذلك الرابطة الأدبية التي أنشئت في الأرجنتين عام ١٩٤٩ على يد الشاعر جورج صيدح، واختفت بعد عامين إثر عودة صيدح إلى الوطن.

ومن هنا نرى أن أدب المهجر قام عليه الشعراء والأدباء المهاجرين –من منتصف القرن التاسع عشر واستمرت هجرتهم خلال النصف الأول من القرن العشرين– من بلاد الشام إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، وانتجوا أدبًا يجمع بين ملامح الشرق، وسمات الغرب.

وأهم ما يميز مدارس المهجر، وأدب المهجر عموما هي عدة سمات على المستويين الموضوعي والفني:

فعلى المستوى الموضوعي، نجد المهاجرين مشتاقين إلى أوطانهم.. تواقون للزيارة ولاستعادة أمجاد الطفولة والماضي، يرغبون في حمل الشعلة التي يتصدون بها مسيرات الدفاع عن قضايا الوطن؛ فرغم المسافة إلا أن تجاربهم وجدانية وشاهدة على قصائد قد فاضت بمشاعر جياشة تتغنى بجمال بلد المنشأ "الوطن الأم" مع إحساسات مختلطة بمرارة الغربة وعلقم المنفى والابتعاد، والمزية هذه كانت سمة قوية ومشتركة بين كافة مدارس المهجر.

وأبرز ما ينجلي حين نقوم بتفكيك أي من أعمال المهاجر، هو الحضور القوي والطاغي للـ"طبيعة" والامتزاج بها، وبث روح الحياة في مظاهرها،

فكانت تقلبات ومناظر الطبيعة هي الصور المعبرة بحق عما يجول بخواطرهم ويعتلج في نفوسهم وعقولهم من مشاعر الخوف والحب والراحة والقلق والسعادة، ومثال ذلك ما تغنى به جبران خليل جبران في قصيدته المواكب بحياة الغابة وما فيها من صفاء وراحة.

والمهاجرون ليسوا صداميين، أو من نوع الأدباء والشعراء ممن يرفعون أصابعهم تجاه الشخوص/القضايا. فهم أبعد الشعراء عن أسلوب الخطابة أو توجيه الكلمة والعبارة بشكل مباشر، بل كان جل عملهم هو الإشارة بهمس والتعبير برقة عن المعنى، على أن وظائف اللغة تضطلع ذاتها بنقل المعنى الذي لا يحتاج إلى تعقيد أو تحميله أكثر مما يحتمل، الذي جعل معانيهم وعباراتهم تتسلل إلى نفوس البشر والقراء كما يتسرب الماء إلى جذوع الشجر.

وكما أسلفنا سابقا –خاصة عند الرابطة القلمية– فإن حضور النفس البشرية وتشريح النوازع الإنسانية كان مكافئًا ديستوفيسكيًا في أدب العرب لدى المهاجر؛ فقاموا بتصوير شخصية الفرد بدقة وتحليلها بشكل يفضي إلى أسباب الحالة التي تصل إليها النفس من شجن وشعور بمرارة الغربة والحنين إلى الوطن، الكشف عن أسرارها ورغبتها كثيرا في الوصول إلى المثل العليا الخالدة، وظهرت النزعة الإنسانية الشاملة في إنتاجاتهم الأدبية؛ حيث يلاحظ قارئُ أدبِ المهجر الحب المطلق لكل إنسان على وجه الأرض، مع انتقاد الظلم الذي يجعل الناس ترزح تحت ظل القيد؛ راغبةً في التحرر والاستقلال، على أن هذه القيود هي التي تقف حائلاً - في رأيهم– أمام مساعي بناء وخلق مجتمع إنساني يسوده العدل والمودة والرحمة.

أما على المستوى الفني والشكلي، فالمهجريون غير متكلفين.. متمردون بطبيعتهم على الغربة، إلى أن تمتد موجات هذه التمرد إلى اللغة ومجابهة استعمال الغريب منها أو غير الملائم للعصر، فأيسر قراءات الشعر وأقربها إلى نفوس غير المتبحرين في اللغة هي قصائد وأعمال المهجر، حيث السلاسة والبساطة ورقة اللفظ مع دقته في الوقت ذاته، وقد تميزوا بذكاء يمنعهم من الاندثار وركاكة اللفظ وسطحية المعنى في الاعتماد على الصورة البلاغية البديعة وأطر التصويرات الجمالية. فالصور الفنية في القصيدة المهجرية تعمل على تشخيص المعنى المقصود؛ فتستطيع الصورة التعبير عن موقف الشعر وعاطفته؛ فجاءت معظم قصائدهم لوحات فنية مليئة بالحياة والحركة.

وقد تميزت أعمالهم استكمالا للشكل الفني، بالدعوة إلى الوحدة الموضوعية في القصيدة وكانت هذه أبرز سمات التأثر بمدارس الغرب خاصة المدارس الأمريكية، حيث مضمون القصيدة وأفكارها ترتبط بشكل كبير ومنبسط مع الفكرة الرئيسية للعمل المُعَبَّر عنه في عنوان القصة/القصيدة. وكذلك انتقلت سمات الموشحات الأندلسية حيث بروز المطولات في شعرهم مع التمرد على الأوزان العروضية الشائعة مع الاعتماد على القصة كوسيلة للتعبير؛ فنجد شخصيات المهجريين تتحاور وتتصارع لتعبر عما يجول في مكنوناتها وسرائرها.

وإن كانت دوافع الهجرة والغربة لدى أدباء المهجر في معظمها سياسية وقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً لاضطهاد الدولة العثمانية للمفكرين والأدباء ومن أبحروا خارج السرب ودعوا إلى حرية أوطانهم والتمسك بالهوياتية التي تميز كل أمة خارج إملاءات العثمانلي وحكم الأتراك، فما بين البحث عن لقمة العيش، وتأمين حياة اجتماعية أفضل، وما بين الهروب من التنكيل والملاحقة والتضييق الأمني، اضطر كثير من المبدعين، منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم، إ

إلى هجرة أوطانهم، وانتشروا في العالم، خاصة بلدان الغرب الأكثر انفتاحًا وحرية، ليصنعوا حالة إبداعية فريدة في المشهد العربي، بل والعالمي، لا سيما فيما صنعه المهجريّ، لكن الملاحظ أيضاً أن مبدعين من الشبان اتجهوا أيضاً إلى الهجرة بالتزامن مع تلاشي التجربة المهجرية بوفاة أعلامها في القارتين اللتين شهدتا بزوغ شمس تجربة المهاجر، أو برجوع آخرين إلى أوطانهم مثل ميخائيل نعيمة إلى لبنان.

ولكن هل يعني توقف تجربة أدب المهجر اندثار "أدب المنفى" أو التجربة الأدبية خارج حدود الوطن أم أنه قد استمر في التطور متخذا مسميات أخرى وخصائص مختلفة معبرة بشكل أكبر عن واقع ما بعد الحداثة وأدب الأمريكيتين المُهجَّن بالثقافة العربية الشامية على الخصوص؟!

عاش الكثير من المبدعين العرب حياة صعبة، يضطرون فيها للعمل في المطاعم والمحلات التجارية ومحطات البنزين لكسب المعيشة وتوفير ضروريات الحياة، وهذا مشابه إلى حد بعيد بوضع الأدباء المهجريين في أوائل القرن العشرين. إلا أنه قد بزغت نجاحات المغتربين في كافة المجالات حيث عملوا في كل حرفة وأبدعوا في كل علم

تمامًا كحال المهجريين الذين حازوا على جوائز كثيرة في مجالات الأدب والاقتصاد والعلم والحقول الأكاديمية، ومن هنا جاءت الكتابة "كفكرة" بمفهومها العام غير المؤطر بأي من الاتجاهات/الموتيفات الأدبية، أكثر من كونها المعبر الرئيسي عن الذات، فتتجه الكتابة إلى قوالب الأدب بصورة مباشرة، أي المقصود إلى فنون القص وأدب السيرة الذاتية والمقالة والتسجيل التاريخي والتأريخ وأدب المذكرات، دون تظافرها مع غيرها من الأقلام والإبداعات لتتقولب داخل اتجاهات المدرسة/التيار فتتحدث حينما يتحدث الآخرون.. وتتخذ مواقف بقية أفراد المدرسة، وتضطلع بالالتفاف حول الرمز والغرض.. إلخ، وغيرها من التزامات التيار.

وهنا تأتي عناصر الذاكرة/المخيال الفردي أو الجماعي/التجربة الشخصية لتصبح هي مكانيزمات فيما بعد أدب المهجر الذي يمكن تسميته باتجاه أدب الاغتراب، سواء كان خارج حدود الوطن فيما يشبه تجربة المهجر أو داخل حدوده فيما يُعبر عنه بأسماء عدة كالأدب اللامنتمي أو أدب البحث عن الهوية. وهذه الآداب التي تجاوزت المفهومات الضيقة لأدب المهجر –

لذي تبنى القضايا الوطنية بمفهومها العام والرغبة في التحرر من المستعمر وإرجاع الهوية الأصلية والأصيلة للوطن أو بمفهوماتها الذاتية المتركزة على الحنين والشجن للوطن– قد تناثرت حول مبادئ عدة، ضمنها من يشعر بضآلة حجم الوطن/الحدود رافعين شعار الشاعر الألماني شيلر "العالم هو وطني"، أو من تبنوا مفاهيم فلسفية ورأوا أنهم ضائعون داخل مفهومات المجتمع، وعبرت عن هذا المعنى الأخير المبدعة أروى صالح في كتابها "المبتسرون"، حينما قالت: "ولكننا كُنا أصغر من أن نُرى".

وهنا كما يقول د. أشرف الصباغ الروائي والمترجم الأكاديمي: "من الصعب الآن وضع توصيفات لما كان يسمى في السابق بـ«أدب المهجر»، لأن التطور وخاصة في مرحلة ما بعد الحداثة، هدم أو أزال الكثير من المعايير القديمة التي كانت تحكم «أدب المهجر» أو الإبداع خارج الوطن، يصعب علينا تصنيف الأدب بين «أدب الداخل» و«أدب الخارج» أو «أدب المهجر»". بالتالي تجاوز "أدب الاغتراب" قيود الجغرافيا، فهناك أدب اغتراب في الداخل كما الخارج، ولم تعُد هناك سعة لاحتمال آداب مثل "المهجر" أو "أدب المنفى"، وبقيت الحاجة لدراسات نقدية وتحليلية بشكل

موسع للأدب الذي يُكتب داخل الوطن وخارجه بمعايير تشتمل على عناصر الاغتراب وصورة اللامنتمي أو غير المتأقلم.

وأخذت تتطور فكرة المهاجر أو المغترب عن وطنه نتيجة التعود على الرحلة والترحال؛ إذ أصبح الأمر روتينيًا مع تحولات المجتمع فيما يخص التغيرات التي طرأت على قيم العمل والأسرة. وتحول المبدع الآن هو صانع القرار فيما يخص قرارات الرحلة والانتقال سواء كان من أجل العمل أو من أجل إرضاء فضول الذات المتوقة لرؤية عوالم جديدة وأناس آخرين غير مألوفين عما جُبِل على رؤيتهم من بني جلدته في مجتمعه.

وفي هذا الميدان المتجاوز للرحلة المهجرية وحنين الوطن، كتب الروائي أسامة علام في أحد المجلات قائلاً: "وعن كل المدن التى عاشت في جسدي كتبت، وكأن عمري فصول كتاب سُمّي بأسماء المدن التي سكنتها، صادقت الكثير من البشر الطيبين والأشرار، لكن أصدقائي الدائمين كانوا الثلاثة الذين لا أعرفني بدونهم، جسدي الذي أنهكته في الترحال، المقاهي التي لا أعرف المدن بدونها، وجهاز الكمبيوتر الذي أكتب عليه أسئلتي، كمرتحل يعيش رواية ضخمة، لا يتوقف عن الاندهاش ولا الحركة التي لن تنتهي إلا بموته، دخلت مئات البيوت ونمت على مئات الأسرة، وفي كل منامة حلم ومع كل حلم قصة، حتى أصبحت أسماء الشوارع تختلط في ذهني كالمدن والحكايات."

وهنا نلاحظ أهم عناصر أدب الاغتراب خارج حدود الوطن، ألا وهو امتزاج الحكاية بالمكان الذي يمكث فيه المبدع، والتعبير ليس عن حنين للوطن أحدثته غربة المنفى، بقدر الغربة عن الحياة عموما، وعدم الراحة في المكان أيا كان، أو محاولة البحث عن الذات التي تتقلب مع الأماكن ومحاولة فك شفرات الذاكرة. وتتحول هنا الكتابة إلى وسيط/نقطة تماس بين الدوافع الخفية لدى الفرد وبين "النداء العام" أو نداء الواجب، محققا الوفاق التام مع الوجود كرغبة محرقة عند أناس يشعرون بالضبط بعدم الوفاق مع أنفسهم ومع العالم كأنهم خلاصة لإحساس أشقائهم البشر بالنقص الكامن دومًا في الكائن الإنساني، وتلك العذابات والإحساس بالغربة عن النفس والآخرين مما سجلته أروى صالح في مقدمة كتابها الرائع "المبتسرون" والذي أعده مرجعًا هامًا في فن القص والحكاية عن الاغتراب.

ويعود تطور أدب الاغتراب وظهور ملامحه بشكل واضح إلى ما طرحته الفلسفة الوجودية، بخاصة كتابات "سارتر"؛ أسئلة كثيرة تتصل بوجود الإنسان الحسي والمعنوي في الحياة، فالإنسان المعاصر إذا انتهى من مشاغله اليومية، يستبد به القلق والرغبة في أن يجد آلاف الإجابات لعشرات الألوف من الأسئلة بأسئلة عند بدايته ونهايته، فكل شيء حوله هو العدم، ووجوده ذاته سيفضي به إلى الموت في النهاية، كما أن استبدال أسئلة الميتافيزيقا، بالانكباب على النفس البشرية وتحليلها لن يؤدي في النهاية إلا إلى مزيد من التخبط، لأن النفس البشرية لن تجيب عن أسئلة الماهية كإجابتها عن الأشياء المادية وما يقع في أطوار الرؤية واليقين.

ولما كان العقل الفلسفي، وتنظيرات الفلسفة قد عجزوا عن تقديم الشروحات المرضية والتفسيرات الواضحة لوجود الإنسان، وكذلك دخول الإنسان عصر التكنولوجيا وزيادة حصار الإنسان بالعديد من الماديات التي لم تستطع أن تقدم له السعادة أو على الأقل لم تستطع ملء فراغات وفضاءات الأسئلة التي تنتجها الذات يوميا حول ماهية الوجود، فازداد الملل والضجر والسأم من العيش، خاصة لمن عرفوا شهوة القراءة والكتابة والاتكاء على الإنتاجات الفكرية والأدبية كمحاولة للتغلب على هذا الاغتراب الذي يعتور النفس.

فأصبح أدب الاغتراب العربي في سبعينيات وثمانينات وتسعينيات القرن العشرين، هو المكافئ لما أنتجه الغرب في حقول "الوجودية" و"العبث/اللامعقول" وأدب السيريالية في خمسينيات وستينيات القرن، وخاصة حينما سقط الساسة وتعرت السياسة والتردي الفكري والاجتماعي العربي وتسليع الإنسان وزيادة تهميشه باسم المجموع بعد بزوغ نجم القيم الحرياتية/الليبرالية التي أرقت الإنسان وقامت بإلقائه في المحيط على أساس أنه حر ولابد أن يقتنص حريته ويحارب الآخرين الذي عمق مشاعر الاغتراب وجعل الإنسان في صراع إما مع نفسه وإما مع الآخرين.

فالمبدع العربي خَلف المهاجر "المغترب حديثا" شهد هزيمة جيله والقيم التي حارب السابقين من أجلها، وتعمقت الفجوة بين سعي المبدع أو المواطن العربي من أجل البحث عن الانتماء وبين ظلال الهوية التي تغزو مخيلته، فاغترب عن العالم، وعن الكون، وعلاقته أصبحت متأزمة مع المجتمع، وذلك كله وسط تخبط المجموع وأبناء الوطن،

الذي جعل حل الأزمة في محاولة الاغتراب والعيش في عالم موازٍ تحاول ملء فراغاته آفاق الإنتاج الأدبي والفكري والإبداع.

فالأديب والمبدع المغترب حينما تمسك بتلابيب الكتابة ظنّ أنه سيؤدي رسالة المفكر التي لخصها توفيق الحكيم في كتابه الرائد "يقظة الفكر" وعلّق بأنه –أي المبدع– يحمل الناس على التفكير معه، يفكرون بأنفسهم لأنفسهم، أي لا يحملهم هو على التفكير وعلى تبني الأفكار والآراء. في حين أن المبدع ضائع بين القيم والفلسفات والتيارات التي لا تجيب عن الأسئلة، فصار المفكر في حاجة إلى مفكر أعلى على غرار إنسان السوبرمان الذي يرتقي درجة الإنسان العاديّ وفق الرؤية النيتشاوية، ورأى الأديب أن عمله وإنتاجه تحول من مجرد رؤيتة لحل مشكلات الناس والمجتمع إلى توليفة من الشكاوى وأداة لفضح المجتمع الذي يمقته وقد تاه داخله لا فرق بينه وبين الدهماء والعامة اللهم إلا درجة الوعي بتفاقم والوضع ومشكلة الضياع والاغتراب والانفصام والانفصال عن الكل والمجموع.

يذكرني الوضع هذا الخاص بالمبدع المغترب، بإحدى قصص القاص الروسي العظيم أنطون تشيخوف في قصته الطويلة "قصة ملل"؛ فدكتور الجامعة نيكالاي ستيبانفيتش –الذي كان يعيش مع أسرته– كانت جُل نقاشاته فقط مع كاتيا تلميذته التي كانت تعيش معه والأسرة أيضًا، د. نيكالاي أستاذ جامعي، يشارك دوما تلميذته التساؤلات حول قضايا الوجود والإبداع والفن ولا يرى إلا غموضًا في الأهداف العامة للحياة، وملًا للآخرين حوله، ومعضلة في التعرف على علاقته بالآخر/المجتمع، ففكر في شطب حياته السابقة حينما رأى ما رآه شاعر ويلز ديلان توماس حينما قال: "أحدهم يصيبني بالملل، إنه أنا"، وكذا حينما رأى تجلي التصوري السارتريّ للآخر "الجحيم هم الآخرون"، وفي النهاية عاش نيكالاي ستيبانفيتش مهزوما وسيموت مهزومًا رغم ما وصل إليه من مجد وشهرة حسب ما عبر.

وقصة ملل يصعب قراءتها بمنأى عن واقع المغترب العربي المعاصر المهزوم منذ سبعينيات القرن الماضي، فهو يحصد آلاف الإعجابات اليومية ويفوز بالجوائز والنياشين والتقديرات وتوزع أعماله بالآلاف إلا أنه مهزوم في داخله يقتسم اغتراب الآخرين ولمن يكتب لهم ولمن لم يقرؤوا أعماله كذلك.

وهناك عوامل أخرى (غير الذاتية) التي تعزز من إنتاجات أدب الاغتراب، ألا وهي قضايا حرية الفكر والرأي والتعبير وبروز صورة المجتمع المُكَفِر، والأصوات العالية المدعومة بشكل مؤسسيّ والتي تعمل على الحفاظ على الركود الفكريّ واحتكار الآراء والأفكار التي يمكن طرحها على المجموع والعامة، وهنا يرى المبدع أفكاره ليست على مقاسات الجميع، ويمكن لأفكاره ومؤلفاته وأن تحرمه مساحات الرضا ونطاقات الوفاق فيختارون أمن التوافق على علقم قضبان السجون ونقم رجل الشارع ووخز ألسنة الصحافة وسهامات النقد من الانتلجنتسيا "النخبوية" التي تدعمها الدولة.

وهنا يصير المبدع غريبا ويغرق في اغترابه ويحاول أن يفك الطلاسم والحوائط التي تمنعه من الوصول والتواصل مع أبناء مجتمعه بالرمز أحيانا أو بالإسقاط تارة أو بهجر القالب الذي يبدع فيه إلى قالب آخر تحتمله الدولة بنخبتها برضاء الغالبية أو أن يكون أمارة كمهجري قديم قد ترك الوطن وهجره طوعًا حتى يستطيع أن يعبر ويقول، ويلجأ إلى دور النشر الخارجية. إلا أن نقر بأن وسائل التواصل والتطور التقني قد منحتا المبدع فرصة أكبر للتواصل ولأن يملي على الناس ما يريد من أفكار إلا أن توفر الوسيلة لا يعني هجره لمساحة الاغتراب طالما أنه قد قوبل بالرفض وباتهامات التكفير والمروق والزندقة فتصبح إبداعاته سهامًا يوجهها المفكر والكاتب بنفسه إلى صدره.

أدب المهجر : بين رومانسية الطرح ونضـالات الحـريات

بوذراع حمودة
كـاتب من الجـزائر

يعد كل من الفن والأدب وسائل للنضال من أجل مختلف القضايا التي يعايشها الفنان أو الأديب، ولعل في اختلاف المنظرين حول كون الأدب فنّا أو أنه كيان مستقل عنه لشيء هين، أن ذلك راجع لكون المسألة ثانوية، بينما اعتبار الأدب وسيلة للنضال فهذا ما لم نشهد له خلافا قط، فالقطع الأدبية هي نتاج تجارب الأدباء في معايشة الواقع، فأحينا يسردون تلك الوقائع وأحيانا أخرى يروونها على ألسنتهم أو على ألسنة أشخاص آخرين، كما أنها قد تتخذ شكل الخيال وذلك في محاولة الأديب للاعتراض على الواقع ومقاربة احتياجاته بخيالات لما يجب أن يكون أو ما قد يكون لو لم نغير في الوقائع.

وبقدر ما يكون الأدب إحدى وسائل الترفيه أو عرفا محتكرا لدى الطبقات المثقفة والمخملية، بقدر ما ارتبط بالبؤس والفقر والمعاناة، فالأدب ذلك الشيء الزئبقي الذي يتخذ شكل القالب الذي يوضع فيه، فيتأثر بنفسية الراوي وأهوائه وتخيلاته، وكذا بزمانه وبيئته، وبالمجتمع الذي يعيش فيه وطبيعة نظامه السياسي والاجتماعي، ناهيك عن تركيبة نظامه العقائدي، ومن هنا تتمخض أنواع لا حصر لها من الأدب، تختلف مشاربها وأغراضها، لكن تظل جميعها وليدة الحاجة، وكونها تعبيرا عما هو غير مألوف، وما هو طرح ناقد أو جديد.

ونجد من بين هذه الأصناف المتعددة من الأدب نوعا وليد الحرمان والأسى، ألا وهو "أدب المهجر" أو أدب الاغتراب،

حيث يكون الأديب مغتربا عن وطنه لأسباب متعددة منها ما يتعلق باختياراته الشخصية ومنها حالات يُفرض على المغترب أن يهجر وطنه، لكن المغتربين حتى وإن هاجروا أوطانهم فإنها لا تهجرهم، تظل جزءا من كياناتهم، فقوانين الطبيعة جعلت من الإنسان جزءا منها، وبذلك يصبح الوطن جزءا من الإنسان يحمله حيث حل واستقر.

وحرمان الأديب من وطنه، ذلك الجزء من ذاته، يرثيه طالما هو حي، ولكون الأدب مرآة للوقائع الأديب فإن ذلك يجعل من الأدب الوجه الظاهر لكل تلك المشاعر التي تخالجه من حرمان وأسى، فيسكب الأديب كل تلك المشاعر العميقة في قالب أدبي تختلف أشكاله من المذكرات والروايات والشعر إلا أنها جميعها تتسم بالقتامة والسوداوية والمغالاة في استخدام التشبيهات البليغة والمحسنات الأدبية فذلك ما تصنعه ذكريات الأديب حين يتعلق الأمر بالحنين للوطن، فدائما ما تضخم تلك المناطق أو الشوارع أو حتى الحجارة المركونة في الأزقة فتستحيل جميعها لوحات أدبية بالغة الجمال ومكتملة الحياة بمشاعرها، غير أنها في الحقيقة لا تعدو كونها جامدة وقبيحة كما كانت في الماضي.

وبذلك يغالي أدباء المهجر في رومنسية الخطاب، بيد أن بين أدباء المهجر الكثيرين من يتحولون إلى أصحاب قضايا ومناضلين من أجلها بالقلم والأدب، فلطالما كانت أدبيات المهجر ملاذا للمغترب من أجل الدفاع عن حقوقهم المسلوبة، فمنهم الملاحقون سياسيا بسبب قضايا الرأي أو الدفاع من أجل الديموقراطية، فتصبح الشمولية، ونقيضها الديموقراطية، محور أعمال الأديب، فيسكب كل تلك المظالم في كتب توعوية، أو في روايات دوستوبية تمثل الوقائع في أبشع مظاهرها وتتنبأ بذلك المستقبل الكئيب الذي ستؤول إليها الشعوب والأوطان، ومن الأدباء من يغترب هربا من وقائع اجتماعية ذات علاقة بخلفيات دينية أو بالعادات والتقليد، فيروح الأديب المغترب يحلل في بنية تلك المنظومات القيمية بأسلوب نقدي يبين بذلك بشاعة هذه القيم وخطورتها على الفرد والمجتمع فمنهم من يكتفي بذلك ومنهم من يتبنى أطرا أخرى فيحاول تسويقها للقراء على أنها الحل، سواء كانت أفكارا تتعلق بحركات تصحيحية أو أخرى تجديدية ينبغي أن تحل محل القديمة بشكل راديكالي.

وتعد كل الأنظمة الشمولية والمجتمعات المنغلقة ذات الفكر الواحد أحد أهم عوامل رواج مثل هذا النوع من الأدب -أدب المهجر- وذلك كون المهاجرين أحد الإفرازات الطبيعية لها،

من خلال التضييق على حرية التعبير من خلال سن قوانين مطاطة تدين التفكير والتعبير خارج المسار المسطر من قبلها مسبقا، ويترتب عن ذلك نزييف خارجي لتلك الكفاءات الأدبية نحو بيئة أكثر مواءمة لطبيعة نشاطاتهم، نحو دول المواطنة التي تكفل التنوع وحرية التفكير والتعبير.

وبذلك تعد قوانين الرقابة الفكرية أحد العلل التي تسهم في رباء أدب المهجر، حيث تندرج ضمن قوانين الرقابة الفكرية نصوص تشريعية تخول للسلطات الرقابة على المؤلفات المنشورة داخل الدولة، وتمنع أي منشور مهما كانت صفته من التداول في سوق النشر إلا بإذن مسبق من هيئات رقابية، ويتعدى ذلك إلى الرقابة على سوق الكتاب حيث إن عمليتي تصدير واستيراد الكتب والمؤلفات تخضع هي أيضا للرقابة، الشأن الذي يضمن للنظام الاستحالة النسبية لتداول الفكر بحرية حيث تقوم هيئات الرقابة والضبط بإقصاء جميع المنشورات والمؤلفات التي تتعارض مع الفكر الواحد التي تتبناها تلك الأنظمة.

إلا أن جميع الأنظمة الشمولية تحمل بذور فنائها، حيث فرضت التطورات التكنولوجيا واقعا جديدا، فيه يستحيل على مثل هذه الأنظمة إقصاء التفكير والتعبير، وذلك عائد لكون تكنولوجيا الإعلام والمواصلات قد تجاوزت حدود الزمان والمكان، ولم تعد لتلك المؤسسات الرقابية القدرة على منع أي مصنفات فكرية حتى تلك التي تؤلف في المهجر والتي غالبا ما يكون أصحابها متابعين قضائيا أو تم تخوينهم بطريقة ديماغوجية من خلال مؤسسات البروباقوندا الإعلامية التابعة لمثل هذه الدول أو الخاضعة تحت نفوذها.

وبذلك نختم مقالنا هذا بمجموعة من الاستنتاجات التي ندرجها كما يلي:

- أدب المهجر لا يقتصر على كونه عملا أدبيا رومنسيا بحتا، بل يعد وسيلة مهمة ومأثرة للنضال من أجل القضايا العادلة.
- لم يعد من الممكن للدول الشمولية فرض الرقابة على الفكر وجميع مصنفاته الأدبية والعلمية، وذلك راجع لكون تكنولوجيا الإعلام والاتصال فتحت نوافذ آمنة وسلسلة للنشر غير التقليدي.
- أصبح أدب المهجر في الآونة الأخير أكثر تداولا في البلدان المحظورة أكثر مما كان عليه في السابق للسبب المذكور سالفا، ولم تعد إجراءات نفي الكتاب أو اضطهادهم سلوكا رادعا على الأقل على صعيد التعبير.
- يعد أدب المهجر من بين أهم المصنفات التي تزيد من الوعي الحقوقي لدى الشعوب المتخلفة، نظرا لوقعها المر على الشعوب، وخطابه المستفز في تعرية الحقائق، والجرأة في طرحه لجميع التابوهات الاجتماعية والسياسية.

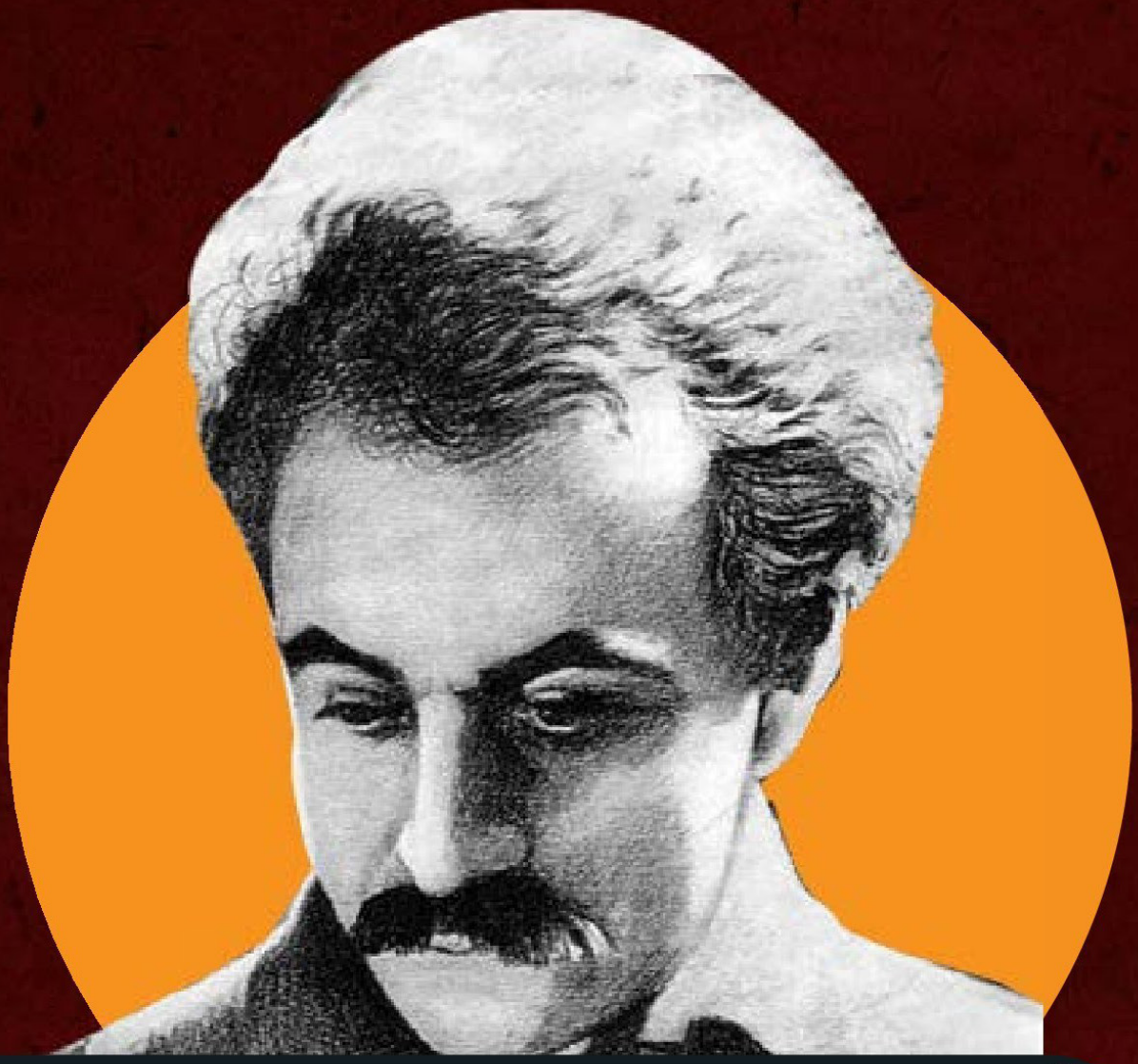

جبران خليل جبران..
فيلسوف المهجر وأديب عالمي

نبض

شبكة مواطن الإعلامية

ما بعد الخطوط الحمراء

المملكة المتحدة - لندن